حول معاني حروف المعاني وأصول استعمالها

حسن عباس

الحلقة الأولى

حول صعوبة التعامل مع حروف المعاني .

لقد درج علماء اللغة العربية وفقهاؤها القدامى منهم والمحدثون على تقنين استعمال حروف المعاني من (جر وعطف وجزم ونصب وغيرها .) وفق ما ورد في تراثنا اللغوي من الشعر العربي الأصيل ، والقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والنصوص الأدبية ، والمعاجم اللغوية ، وكتب الصرف والنحو وما إليها ...

ويتشدد بعض النقاد في تحديد طريقة استعمال كل حرف منها ، بأن تجري وفق ما شاع استعماله بغض النظر عن جدواها في تأدية المعنى الدقيق الذي يرمي إليه الكاتب .

وهكذا إذا كان المعنى المراد مستحدثا أو غير شائع ، فإن استعمال الحرف وفق ما شاع ، قد يحيد بالكاتب عن غرضه ، أو يوقعه صراحة في الخطأ .

ونظرا لكثرة حروف المعاني في اللغة العربية وتنوع استعمال كل واحد منها لشتى الأغراض (حزنت له / الكتاب له) ، فإنه ليس ثمة ما هو أخطر على فصحى الكاتب العربي من مسألة استعمال هذه الحروف بمعرض التعبير عن معانيه .

كما أن تعامل أكثر من حرف مع فعل واحد (حزنت له / حزنت عليه) ، للتعبير عن أكثر من غرض ، يزيد المسألة صعوبة . وقالوا : ((مات الفراء وفي قلبه شيء من حتى)) .

وتتجلى أهمية حروف المعاني وخطورة استعمالها ، في كونها هي الأدوات الثقافية الدقيقة التي يسبر الكاتب العربي بها أعماق نفسه ويلاحق بها تلونات أفكاره ، ليستخرج منهما معانيه خالصة من كل شائبة على وضوح وبلاغة ورشاقة وشفافية فجاءت تسميتها حروف المعاني موافقة لمهامها ووظائفها . وقصة (واو) اللوزينج في عبارة (لا ، وأيدك الله) ما هي إلا واحدة من آلاف الأمثلة .

وإذا كان من الجائز تشبيه حروف المعاني في اللغة العربية بالأدوات الجراحية الدقيقة المعاصرة يسبر

الجراح بها أعضاء البدن ، فيستخلص العلل من مكامنها .

فإن معاناة الكاتب العربي مع حروف المعاني هي أشد من معاناة الطبيب مع الأدوات الجراحية . ذا يتعامل مع بعضها مما يتعلق باختصاصه ، وذاك يتعامل مع واحد وثلاثين نوعا من حروف المعاني .

وشبابنا ممن يتعاطون الكتابة لشتى الأغراض الأدبية والعلمية والصحفية وما إليها ، أين هم اليوم من تراثنا اللغوي ؟

إنهم لم يحفظوا آلاف الأبيات من الشعر العربي الأصيل ، جاهلية وغير جاهليّة عن ظهر قلب ، ولا عشرات السور القرآنية ، ولا الكثير من النثر الأدبي ، ولا كتب الصرف والنحو ، كما كان يفعل جيل العشرينيات أو الثلاثينيات من مثقفي هذا القرن .

ولذلك فإنه لمن المتعذر عليهم إن لم يكن مستحيلا ، أن يستعملوا حروف المعاني جميعاً في وجوهها الصحيحة ولو استعملوها على وجه ما شاع استعماله . فما كل ما شاع استعماله يصلح للتعبير عن معان لم يشع استعمالها ، أو لم يسبق تداولها .

ما السبيل إلى ترويض حروف المعاني ؟

إنه لامخرج للكاتب العربي من هذا الحصار التراثي ، إلا أن يستهدي بخصائص الحروف العربية ومعانيها بمعرض استعمال حروف المعاني تعبيرا عن حاجاته ومعانيه . وبذلك نعود إلى أصول التراث .

فاللغة العربية تتفرد عن سائر اللغات الحية المعاصرة ، بأن لكل حرف من حروفها معاني محددة تتوافق بصورة عامة مع خصائصه .

وهذه الخصائص ، إما أن تكون ايمائية تمثيلية تتأتى من طريقة التلفظ بصوت الحرف ، وإما أن تكون إيحائية تتأتى من صدى صوته في النفس .

وهذا الاختلاف في خصائص هاتين الفئتين من الحروف العربية (حروف المباني) ، يعود أصلا إلى الاختلاف في المستوى الحضاري للمراحل التي أبدعت خلالها كل فئة منهما .

فطريقة التعبير عن المعاني في دنيا التواصل إيماء وتمثيلا بالحركات الجسمية (يد .. رأس . فك . أسنان . فم ..) ، إنما هي أكثر بدائية وتخلفا ، وبالتالي أقل تطوراً ورقياً من التعبير عنهما بصدى أصوات الحروف في النفس . وهذا يقطع بأن مرحلة إبداع أصوات الحروف الايمائية التمثيلية هي أعرق في القدم من مرحلة إبداع أصوات الحروف الايحائية .

الجذور الغابية والزراعية والرعوية في الحروف العربية :

لقد تبين لي في دراسة متعمقة عن (الشخصية العربية والحرف العربي) أن الانسان العربي قد أبدع حروفه عبر ثلاث مراحل .

ففي المرحلة الغابية التي امتدت منذ بداية العصر الجليدي الأخير حتى الألف (12) ق.م ، قد بقي لنا يقينا مما أبدعه الانسان العربي خلالها من وسائل التواصل مع أبناء جنسه أصول الحروف الجوفية الثلاثة (الألف والواو والياء) .

وفي المرحلة الزراعية التي امتدت منذ الألف (12 حتى الألف 9) ق.م أبدعت المرأة زعيمة المرحلة الزراعية الحروف الايمائية ، وقد بقي لنا منها يقينا أصول حروف (ف. م. ل. ذ. ث) واحتمالا حرفا (ش. خ).

أما في المرحلة الرعوية التي امتدت منذ الألف (9) ق.م حتى العصور الجاهلية الأولى ، فقد أبدع الرجل زعيم المرحلة الرعوية ، الحروف الايحائية. كان

منها يقينا الحروف الحلقية (ح.ع.غ) . والحروف (ص. ض. ط. ظ. ق) تفخيما لحروف (س. د. ت. ذ. ك) ، وباحتمال شديد ما بقي من الحروف ، كما سيأتي في الحلقات القادمة بشيء من التفصيل .

لايجرح هذا التصنيف المرحلي أن يكون الانسان العربي قد اهتدى إلى أصول أصوات بعض الحروف الرعوية المحتملة في مراحل زراعية أو غابية سابقة ، مادام قد هذبها وطورها واعتمد صدى أصواتها في النفس تعبيراً عن حاجاته ومعانيه في المرحلة الرعوية ، كما سيأتي في الحديث عن معاني حروف المعاني .

ولقد اعتمدت في هذا التصنيف المرحلي أدلة كثيرة ، منها التاريخي الأثري ، ومنها الاجتماعي والنفسي والمهني واللغوي وما إليها . ولكن اختصاراً للحديث وحصراً له ، سنكتفي في الحلقات القادمة بسرد الأدلة اللغوية ، لانتطرق إلى سواها إلا عند الضرورة .

على أن هذا التصنيف سيلاقي معارضة شديدة ممن ينكرون على اللغة العربية فطرتها ، وعلى أصوات الحروف العربية موحيات معانيها .

وسيرى هؤلاء المعرّضون أن لكل حرف عربي معانيه ووظائفه التي استمدها من خصائصه الايمائية أو الايحائية ، بالرجوع إلى المعاجم اللغوية . وسوف يرون أنه لايمكن تعليل هذه الخصائص والمعاني إلا بالتسليم بانتماء الحروف العربية إلى مراحل الحياة الثلاث آنفة الذكر .

ولما كان معظم حروف المعاني مؤلفا من حرف واحد أو حرفين ، فإنها بلاشك هي أقدم المستحاثات اللغوية وألصقها طبيعة ووظيفة بمراحل إبداع حروفها . وسيجد القارىء الحيادي بمعرض الكشف عن أصول معانيها مدى صدق تصنيفنا الحروف العربية ، ليس إلى ايمائي وإيحائي فحسب ، وإنما إلى غابي وزراعي ورعوي أيضا .

الحرف العربي والشخصية العربية

مدخل لابد منه :

هذا المدخل ، ليس مجرد تمهيد مدرسي يعرّف القارىء بهذه الدراسة ، أو خلاصة جامعة لبنودها ، أو دليلا نظريا يهدي إلى مسالكها ، فحسب .
وإنما هو فوق ذلك ، محضر موجز لندوة فكرية مضمرة ، قد استمر الحوار فيها بيني وبين الحروف العربية أعواما عديدة .
فكان لابد من هذا المدخل ، يلملم من جوانب ذلك الحوار الطويل في مخطط عام يجعل من هذه الدراسة وحدة متماسكة ، على تعدد قضاياها وتشعب مشاكلها وإشكالاتها .

أولا : في موقع هذه الدراسة :

هذه الدراسة تعنى مبدئيا بأصوات الحروف العربية كوحدات صوتية (فونيمات) ، ولذلك فهي تتداخل مع علم الصوت العضوي (الفوناتيك) .
كما تقوم أصلا على صدى أصوات الحروف العربية في النفس استشفافا لخصائصها ومعانيها ، لتتماس بذلك مع علم وظائف الأصوات (الفونولوجيا) .
وهكذا ، فإن هذه الدراسة هي ألصق ما تكون بعلم النفس اللغوي ، وبعلم الأصوات السمعي ، بعض من علوم اللغة الحديثة .
وكيلا يتبادر إلى ذهن القارىء إني أنحو بهذه الدراسة إلى المساهمة في تحديث علوم اللغة العربية أسارع فأوضح بأنها محاولة جادة لتأصيلها ، بالعودة بها إلى أصول أصالتها ، وإن تداخلت وتماست مع ما ذكرته وما لم أذكره من علوم اللغة الحديثة ، مما يؤهلها لتأصيل بعض جوانب هذه العلوم أيضا .
ولئن أعرضت العلوم اللغوية الحديثة بما فيها الألسنية والأسلوبية والدلالات ... عن الخوض في أصول نشأة اللغات لضبابيتها التاريخية ، وعن التصدي لعلاقة أصوات الحروف بمعاني الألفاظ ، لانفصام هذه العلاقة بعامة في اللغات الغربية ، فإن هذه الدراسة قد انطلقت من هاتين المسألتين بالذات للبرهان على فطرية اللغة العربية وأصالتها ، مما يحفظها من مزاجية علماء اللغة المحدثين ومن النزوات الشعرية والأدبية ، ومن مختلف الغزوات الثقافية المضادة ، في كل ما يتعارض مع مقومات أصالتها .

فنشأة اللغة العربية التاريخية والاجتماعية والثقافية ، تختلف عنها في اللغات الغربية التي كانت مثار تأملات علمائها وموضع تطبيق نظرياتهم في علومهم اللغوية الحديثة .

وهكذا ، فإن هذه الدراسة ، بما تلقيه من أضواء جديدة على الجوانب التاريخية والصوتية معا من خصائص اللغة العربية ، وعلى العلاقة الجدلية بين

الحرف العربي والشخصية العربية ، من شأنها أن تجعل علماء اللغة الغربيين والعرب المحدثين يعيدون النظر في القرارات القطعية التي اتخذت منذ القرن التاسع عشر بتحريم ارتياد هذه الآفاق من بحوثهم اللغوية . فما لم يصح في لغاتهم قد صح في اللغة العربية ، ولكن ما كان أشق التحقق من ذلك .

فهذه الدراسة كان لابد لها أن تتناول قضايا فكرية عديدة تتصل بعلوم الأصوات والنفس واللغة والتاريخ والآثار والاجتماع والفيزيولوجيا ، وما إليها من مسائل الفن والأخلاق ، مما عرضها بالضرورة إلى كثير من التعقيد . على أن أعقد ما في هذه الدراسة ، هو جانبها الصوتي النفسي .
فللكشف عن العلاقة الفطرية الكائنة بين أصوات الحروف العربية ومعانيها ، لابد من الاستعانة بالمنهج الذاتي في علم النفس (الاستبطان) ، للاهتداء إلى خصائص أصوات الحروف ومعانيها . كما لابد أيضا من الاستعانة بالمنهج التمثيلي في علم النفس (التقمص) لمعرفة كيفية قيام الانسان العربي بإبداع أصوات حروفه وألفاظه ، للتعبير عن حاجاته ومعانيه .

وهذان المنهجان ، بصدد تعاملهما مع أصوات الحروف العربية ومعانيها ، يستلزمان رهافة في السمع ، وشفافية في المشاعر ، وتذوقا رفيعا في الأدب ، ومعاناة طويلة مع تلونات أصوات الحروف العربية .

فكيما يستطيع القارىء أن يستخلص ما في صوت حروف ما من الأحاسيس الحسية أو المشاعر الانسانية لابد أن تتوافر فيه الحدود الدنيا من هذه الشروط جميعا . ومن يفتقر لها قد يجد هذه الدراسة مجرد توهم لا رصيد له من حقيقة ، أو ضربا من الكلام المنمق الأنيق لا يقنع أحدا .

فالأستاذ محمد المبارك ، خريج جامعة السربون في باريس ، كان في مؤلفاته الأولى من كبار المتعصبين لرمزية الحرف العربي ، فاللفظة العربية كانت في رأيه ، مجرد مصطلح على معنى والحرف العربي لا يوحي بأي معنى من المعاني . لم يرجع عن هذا الرأي معتذرا ، ومشكورا إلا بعد أن أمضى بضعة عشر عاما في تدريس اللغة العربية والتأليف فيها ، كما سيأتي .

لذلك وتذليلا لهذه الصعوبات المتوقعة ، وترويضا لسمع القارىء غير المتخصص على استشفاف الخصائص الحسية والموحيات الشعورية الكائنة في أصوات الحروف العربية ، قد مهدت لهذا الجانب الصوتي النفسي من هذه الدراسة ، بفصل خاص عن الحواس الخمس ، ثم أتبعته بفصل آخر عن آراء علماء اللغة حول مسألة الايحاء في أصوات الحروف العربية .

كما أتبعتهما بثالث عن الايحاءات الحسية والشعورية في أصوات الحروف العربية ، قد تناولت فيه عمليتي (الاستبطان والتقمص) العائدتين إلى المنهجين الذاتي والتمثيلي في علم النفس .

ولا أكتم القارىء ، إني أعدت صياغة هذه الدراسة مرات عدة ، في محاولات متأنية لتبسيط قضاياها ، وإضفاء الصبغة الأدبية على شروحها ، كيما تكون في متناول المثقف العادي غير المتخصص ، فهي تنتمي إلى الفكر القومي بقدر ما تنتمي إلى الفكر اللغوي .

ومع ذلك أرى من المفيد أن أنبه منذ الآن إلى مشاق الرحلة التي تنتظرنا مع الحروف العربية عبر هذه الدراسة ، وإلى أنه لابد من استيعاب كل مرحلة من مراحلها قبل الانتقال إلى المرحلة التالية . فهذه الدراسة إنما هي حلقات مترابطة متكاملة ، قد قامت على منطلقات فكرية أكثرها مستحدث ، إذا ما فات

القارىء بعضها صعب عليه استيعاب ما يتلوها من الحلقات .

ثانيا – في المنهج الذي اتبعته مع هذه الدراسة :

لقد انطلقت في هذه الدراسة من مقولة فطرية اللغة العربية ، بمعنى أن أصوات حروفها مقتبسة مباشرة من الطبيعة المادية أو الانسانية ، وهذا يستتبع القول بأن معنى اللفظة العربية لا يزال كامنا في جذور أصوات حروفها ، وأنه بالتالي ليس إلا محصلة لمعاني حروفها .

ولئن كان علماء اللغة والآثار والتاريخ ، لم يعثروا حتى الآن على ما يؤكد فطرية اللغة العربية ، من نقوش أو آثار مادية غارقة في القدم ، إلا أن ذلك لا ينفي صحة هذه المقولة .

فاللغة العربية قد بدأت نشأتها الأولى على الهواء الطلق قبل الألف العاشرة قبل الميلاد . ثم ترعرعت في ظل حياة رعوية مشردة ، قصورها خيام ، وقلاعها ظهور مطايا ، وحصونها بطولات ، وآلهتها كواكب سماء ونجوم ، فكانت بذلك أقل لغات الدنيا حاجة إلى التعامل مع المادة الأرضية . ومع ذلك ، إذا كان ثمة آثار مادية من نقوش وسواها ، فهي لاتزال قابعة تحت ركامات من الرواسب والرمال .

وما أحسب أن ثمة من داع لانتظار معاول الاثاريين المنقبين ، كيما نتصدى نحن لمسألة فطرية اللغة العربية مادام قد بقي لنا من تلك المراحل الفارقة في ظلام ما قبل التاريخ آثار مادية ثلاثة ، هي : الحرف العربي ، والانسان العربي ، والموطن الذي احتضنهما عبر مراحل التاريخ .

فهذه المعطيات الثلاثة ، إذا صحت مقولة فطرية اللغة العربية ، تفترض بالضرورة وجود علاقات أصيلة متبادلة فيما بينها ، ولابد لهذه العلاقات أن تخلف لنا عبر العصور بعض المستحاثات الأثرية ، سواء في طيات أصوات الحروف العربية ، أو في الطابع الشخصي المميز للانسان العربي بما يتوافق أصلا مع التاريخ الحضاري للجزيرة العربية . وللتحقق من صحة مقولة ((فطرية اللغة العربية)) ، قد اعتمدنا طريقة الخطأ المفترض في البرهان الرياضي .

فهذه الطريقة تفترض خطأ ، صحة الطلب ابتداء ، وهذا الطلب الذي افترضنا صحته يقودنا إلى نتيجة مباشرة متصلة به أشد الاتصال ، فنبرهن على صحتها في نطاق معطيات المسألة . وهذه النتيجة المفترض صحتها تبعا لصحة الطلب تقودنا بالضرورة إلى نتيجة مباشرة ثانية ، فنبرهن على صحتها في نطاق معطيات المسألة إياها .

وهكذا الأمر في سلسلة متماسكة من الافتراضات والنتائج ، إلى أن تتطابق النتيجة الأخيرة مع حقيقة واقعية جديدة لامجال لرفضها ، فتنسحب هذه الحقيقة بحكم المنطق الرياضي على ما سبقها من الافتراضات والنتائج .

أما إذا وقع العكس ، فتعارضت النتيجة الأخيرة مع حقيقة ثابتة ، فإن هذا التعارض ينسحب بالضرورة على الافتراضات السابقة ونتائجها .

ثالثا : حول سلسلة الافتراضات :

الافتراض الأول :

إذا افترضنا خطأ ، أن اللغة العربية فطرية النشأة ، فإن ذلك يقودنا مباشرة إلى القول ببداءة الحرف العربي ، وفجرية الانسان العربي ، وبعلاقة جدلية بينهما .

فلو أن الانسان العربي قد اقتبس حروفه من

شعب مغاير له في الجنس واللغة ، إذن لكانت الصلة انقطعت بين أصواتها وبين الطبيعة ، وبالتالي بين الجملة الصوتية للفظة العربية وبين معناها ، وذلك على مثال ما انقطعت الصلة بين الألفاظ في اللغات الغربية وبين معانيها ، لعلة اقتباسها من لغات أم أعرق منها في القدم .

فلقد استقر رأي علماء اللغة الغربيون على أن اللغة هي مجرد مصطلحات على معان ، ليس بينها وبين الطبيعة ، ولا بين أصوات حروفها ومعاني الألفاظ أي صلة ، فأجمعوا على القول بأن اللغة : ((هي التعبير الرمزي بالذات وإن كان لها الأولوية على كافة أنماط الرمزية التواصلية)) .

ولقد كرست الجزء الأول من هذه الدراسة بفصوله الخمسة ، للتثبت من صحة النتيجة الأولى المتأتية مباشرة عن الافتراض الأول حول صحة مقولة (فطرية اللغة العربية) ، من حيث بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان العربي ، والعلاقة الجدلية بين الحرف العربي والشخصية العربية .

فبدأت هذا الجزء بفصل خاص عن نشأة اللغة العربية وفطريتها ، وعن علاقاتها باللغات المكناة بالسامية ، وعن صراعاتها معها . كما تناولت بالتمحيص آثار مملكة (ايبلا) العربية ، والخط المسند العربي ، وأصول الحركة الجسمية في لغتنا ، مستشهدا على ذلك ببعض مستحاثاتها من الحروف والألفاظ ، ثم عرجت أخيرا على دور الشعر العربي الأصيل في صناعة اللغة العربية وصياغة مفرداتها صياغة شاعرية محكمة ، تبرئها من كل شائبة اقتباس أو هجانة . وذلك كله للبرهان على صحة بداءة اللغة العربية وفطريتها .

كما كرست الفصل الثاني منه للحديث عن نشأة الانسان العربي ، وعن تطوره الحضاري في الجزيرة العربية عبر مراحله الحياتية الثلاث (الغابية والزراعية والرعوية) ، وعن جذور هذه المراحل في الحروف العربية . كما تطرقت إلى دور المرأة وواقعها في هذه المراحل ، سواء من حيث مساهمتها في إبداع الحروف العربية ، أو من حيث أوضاعها الاجتماعية . وذلك كله للتثبت من صحة (فجرية) الانسان العربي أيضا .

ولما كان حديثنا عن كل ما جاء في الفصلين السابقين عن بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان العربي ، يتوقف أصلا على التثبت من أن الجزيرة العربية هي المهد الأصلي لكل منهما ، فلقد كرست الفصل الثالث للبرهان على أنها هي أصل الحضارات في المنطقة العربية . وبترجيح شديد هي مهد الحضارة الانسانية .

وتأكيدا للعلاقة الجدلية بين الحرف العربي والشخصية العربية كرست الفصلين (الرابع والخامس) للحديث عن ((شخصيتي)) الانسان العربي والحرف العربي ، للكشف عن القواسم المشتركة بينهما من حيث عوامل تكوينهما وصفاتهما . وذلك لاعطاء هذه الدراسة أبعادها الاجتماعية والثقافية أيضا ، مما يسهل على القارىء الاحاطة بمضامين بحوثها مهما تنوع وتتشعب .

وأخيرا ، وللتثبت من صدق العلاقة الجدلية بين ((الشخصية العربية)) والحرف العربي.قد كرست الفصل السادس من هذا الجزء للحديث عن مسألة دوران الحروف العربية في الشعر العربي الأصيل والقرآن الكريم . وذلك لأبرهن على ثبات مقومات ((الشخصية العربية)) الثقافية منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا ، على الرغم من مظاهر الانحلال السياسي والاجتماعي التي اعترتها في عصور انحطاطها .

وهكذا ، فإن مقولة فطرية اللغة العربية ،

لاتراهن على بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان العربي فحسب ، وإنما تراهن على أن الجزيرة العربية هي أيضا مهدهما ، ومهد الحضارات في المنطقة العربية .

ولكن علماء الآثار والتاريخ واللغات والأديان والأجناس ومن إليهم ، قد أهملوا الجزيرة العربية لظاهرة تصحرها ، في جميع تقصياتهم عن أصول الحضارة الانسانية البكر سواء في استئناس النبات أو الحيوان أو صناعة الأدوات أو أصول اللغات والعبادات وما إليها .

فبما أن المكتشفات الأثرية العصرية تشير إلى أن تلك الأصول الحضارية المضيعة ، تعود حتما إلى المنطقة العربية الراهنة ، فقد راح العلماء يبحثون عنها في البؤر الحضارية المعروفة في واديي الفرات والنيل ، وفي بلاد الشام دون جدوى . وذلك لأنهم أهملوا الجزيرة العربية في تقصياتهم لعلة انطماس معالمها الحضارية البكر تحت طيات الرمال في عتمات التاريخ . فكانوا بذلك كمن ضيع قطعة نقود ليلا في باحة معتمة ، فراح يبحث دون جدوى عنها بعيدا تحت أضواء المصابيح التي تقع على أطرافها .

وهكذا كان هؤلاء العلماء يحارون في تعليل سبب بلوغ بعض الآثار المكتشفة في المناطق المحيطة بالجزيرة العربية درجة متقدمة من التطور والرقي ، مما لا جذور حضارية سابقة لها في هذه المناطق .

ولئن عزا بعضهم تلك الظواهر الحضارية المتطورة إلى الجزيرة العربية ، كاستئناس النبات والحيوان مثلا ، كما سيأتي ، فلقد تحفظ بعضهم الآخر على هذا الزعم لخطورة نتائجه التاريخية . ومن هنا أتت الصعوبة التي اكتنفت تقصياتي المضنية عن ريادة الجزيرة العربية في الشؤون الحضارية بدءا من الحرف العربي والخط المسند العربي ، وانتهاء بفنون استئناس النبات والحيوان وصناعة الأدوات . وذلك لم يكن لحرمان الجزيرة العربية من المكتشفات الأثرية فحسب ، وإنما لتعارض تلك الريادة من آراء معظم العلماء الذين عنوا بالمنطقة العربية .

على أن اعتراف أولئك العلماء بجهلهم معرفة منشأ تلك الأصول الحضارية قد هداني إلى استنباط المزيد من الأدلة القوية التي يصعب دحضها . على أن الجزيرة العربية هي مهد جميع الحضارات التي تشكلت حولها منذ الألف / 9 / ق.م ، في بلاد الشام وسواها كما سيأتي بشيء من التوسع والتفصيل .

الافتراض الثاني :

إذا صح أن الحروف العربية بديئة مقتبسة من الطبيعة ، فالمفترض أن يكون الانسان العربي قد استعان بها للتعبير عن مختلف أحاسيسه الحسية ومشاعره الانسانية ، فكيف تم له ذلك ؟ فأجيب :

عندما لمس إنسان الجزيرة العربية الأشياء من حوله في فجره الحضاري البكر ، كان لابد له أن يعبر عن الأحاسيس اللمسية (خشونة ، نعومة ، حرارة ، برودة ، صلابة ...) ، بحركات جسمية ملائمة ترافقها أصوات خاصة ، وذلك بغرض التواصل مع أبناء جنسه . وكان لابد لهذه الأصوات والحركات أن تتطور وتتهذب مع تطور ذلك الانسان ، عقليا وفنيا واجتماعيا وثقافيا ، فيسقط بعض الحركات الجسمية ، ويلطف بعضها الآخر ، وتختصر الأصوات الكثيرة في أصوات حروف معينة لابد أن تكون هي الأوحى على العموم بمختلف الأحاسيس اللمسية ، إذا ماصح هذا الافتراض .

وعندما تذوّق الأشياء وشمها ونظر إليها وسمع أصواتها ، وعانى بعض الانفعالات الشعورية ، كان

لابد له أن يعبر أيضا عن كل ذلك بحركات جسمية ملائمة ترافقها أصوات خاصة ، على مثال ما فعل بالملموسات . وهكذا سقطت الحركات وتهذبت الأصوات عبر آلاف الأعوام ، فاختصرت في أصوات حروف معينة لابد أن تكون على العموم هي الأوحى بمختلف الأحاسيس الذوقية والشمية والبصرية والسمعية وبمختلف المشاعر الانسانية .

وشأن اللغة العربية بصدد هذه الصلة الايحائية أو الايمائية التمثيلية بين الحروف في الألفاظ وبين معانيها ، شأن جميع اللغات البديئة إلا أن بقاء هذه الصلة في لغة معاصرة ما ، وعدم بقائها في لغة أخرى ، يرجع مبدئيا إلى مدى ارتباط الأمة مبدعة أصوات حروفها وألفاظها ببيئتها البكر ، وإلى تمسكها بلغتها الأم ، مرحلة حياة بعد مرحلة ، إلى أن تنضج لغتها في مراحل حضارية راقية .

وهكذا تحولت الألفاظ في اللغات الغربية على العموم إلى رموز ومصطلحات على معان ، لأن أصوات حروفها المستوردة فقدت صلتها بالبيئة الطبيعية والاجتماعية التي نشأت فيها ، كما أن صلاتها باللغات الأم كالسنسكريتية ، أو اليونانية القديمة ، أو اللاتينية ، وما إليها ، قد تقطعت عبر مراحل انحلالها في لهجات محلية تطورت مع الزمن إلى لغات حية على أيدي أدبائها وعلمائها وسياسيها .

أما الانسان العربي فقد ظل مقيما في جزيرته يمارس مهنة الرعي إياها ، في ذات البيئة التي نشأت فيها أصوات حروفه ، لتنضج على مهل العصور في لغة لا أبلغ ولا أفصح ، في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم . ولذلك كان من طبيعة الأمور أن تتأصل هذه الصلة الفنية بين لغته وبين الطبيعة ، لتتأصل بذلك الصلة الراهنة بين الحروف العربية وبين الحواس والمشاعر الانسانية .

الافتراض الثالث :

إذا صح أن الانسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات حروفه ، فالمفترض أن توحي الأصوات ذاتها بمختلف الأحاسيس والمشاعر الانسانية . فأصوات الحروف قبل أن تنتمي إلى القطاع اللغوي ، تنتمي أصلا إلى القطاع الصوتي . ولقد اقتضاني البرهان على هذا الافتراض أن أقوم بدراسة تجريبية مبتكرة على الحواس الخمس للكشف عن العلاقات المتبادلة بين الأصوات والحواس . فخلصت منها إلى تصنيف الحواس في هرمين حسيين اثنين :

الهرم الأول :

إن الحواس الخمس ، من حيث طبيعتها المادية ، أي من حيث تعاملها مع مادة الأشياء ، يمكن تصنيفها في هرم حسي سوى ، قاعدته في الأسفل وذروته إلى الأعلى . تبدأ قاعدة هذا الهرم بحاسة اللمس أشد الحواس مادية لتماسها المباشر مع مادة الأشياء التي تتعامل معها . ثم تأتي حاسة الذوق الأقل مادية في الطبقة الثانية ، فهي لا تتعامل إلا مع الخصائص الذوقية في الأشياء . وتأتي حاسة الشم في الطبقة الثالثة ، إذ لاتتعامل إلا مع الروائح المنبعثة عن الأشياء . ثم تأتي حاسة النظر التي لاتتعامل إلا مع الصور والألوان المنعكسة عن الأشياء . أما حاسة السمع ، أقل الحواس مادية وأكثرها تجردا فهي تحتل قمة الهرم ، لأنها لاتتعامل إلا مع الفعاليات المنبعثة عن الأشياء على شكل موجات من الاهتزازات .

الهرم الثاني :

أما الحواس من حيث قدرتها عل استيحاء الأحاسيس الحسية واحتوائها ، فمن الممكن تصنيفها في هرم حسي ، منكوس ، ذروته في الأسفل ، وقاعدته إلى الأعلى .

يبدأ هذا الهرم بحاسة اللمس في الذروة المنكوسة إلى أسفل . فملامس الأشياء لا توحي لنا بأي إحساس ذوقي أو شمّي أو بصري أو سمعي . وحاسة اللمس إنما هي كالغريزة الجنسية مغلقة على نفسها ، عمياء صماء عن كل إحساس آخر .

ثم تأتي حاسة الذوق في الطبقة الثانية . فمذاقات الأشياء تحتوي الأحاسيس اللمسية ، كل طعم يوحي بإحساس لمسي معين ، إلا أنه لا يوحي لنا بأي إحساس شمي أو بصري أو سمعي . ثم تأتي بعدها حواس الشم فالبصر فالسمع . كل حاسة منها تدرك أحاسيسها مباشرة ، كما تحتوي أحاسيس ما دونها من الحواس ، على مثال ماحظناه في الحاسة الذوقية . أما المشاعر الانسانية ، فهي لشفافيتها المتناهية وتجردها المطلق عن المادة ، تحتوي بالضرورة أحاسيس الحواس جميعا ، ولكن من خلال معانيها .

فالحالة الشعورية التي تثيرها كلمة نابية أو نظرة شذراء مثلا ، قد تعاني النفس من معناها ما تعانيه الأصابع من وخز الابر ، وما يعانيه الذوق من مرارة الطعم ، والشم من كريه الروائح والبصر من قبيح المناظر والسمع من ناشز الأصوات منكرها .

ولقد عقدت فصلا خاصا عن الشعور في هذه الدراسة للكشف عن خصائصه ودوره في عمليتي إبداع أصوات الحروف العربية واستيحاء معانيها ، قد خلصت منه إلى أن الشعور الذي يعي ذاته بذاته ، يمكن اعتباره حاسة من نوع خاص ، فكان تصنيف الشعور كحاسة سادسة فوق قمة الهرم الحسي الأول ، وعلى امتداد قاعدة الهرم الحسي الثاني .

الافتراض الرابع :

إذا صح أن الأصوات توحي فعلا بمختلف الأحاسيس الحسية والمشاعر الانسانية ، وأن الانسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات حروفه ، فالمفترض أن توحي هذه الحروف بذات الأحاسيس والمشاعر .

وللتحقق من صحة ذلك ، أخذت أتأمل صدى أصوات الحروف العربية في نفسي للكشف عن خصائصها وموحياتها حرفا بعد حرف . ولقد تبين لي أن هذه الحروف موزعة بالفعل بين الحواس والمشاعر الانسانية . لكل حاسة مجموعة من الحروف ، ولكل انفعال شعوري أساسي حرف خاص .

لقد اعتمدت بادىء الأمر تصنيفا خاصا للحروف العربية تبعا لموحياتها الصوتية ، دون أن أعير طريقة النطق بها أي انتباه . ولكن ما أن اهتديت مصادفة بعد إنجاز هذه الدراسة للمرة الأولى ، إلى أن الانسان العربي قد اعتمد الحركات الايمائية في بعض الحروف للتعبير عن معانيه ، كما في حرف (الفاء) ، حتى أعدت تصنيفها مجددا بما يتوافق مع خصائصها الايمائية أيضا .

وهكذا استقر الرأي أخيرا على جدول التوزيع التالي :

1 – لحاسة اللمس ستة حروف هي : (ت. ث. د. ذ. ك. م) .

2 – لحاسة الذوق حرفان إثنان هما : (ر. ل)

3 – لحاسة البصر أحد عشر حرفا هي : (الألف المهموزة واللينة. ب. ج. س. ش. ط. ظ. غ. ف. و. ي).

4 – لحاسة السمع حرفان اثنان هما : (ز. ق).

5 – للمشاعر الانسانية سبعة حروف هي : (ص. ض. ن. خ. ح. هـ. ع).

أما حاسة الشم ، فلم أجد لها حرفا خاصا لها ، وإن كان لأصوات بعض الحروف إيحاءات شمية

إلى جانب ايحاءاتها الخاصة الأخرى . كما في الخاء للروائح القذرة ، والطاء للروائح العطرة .

الافتراض الخامس :

إذا صح ما انتهينا إليه ، من الافتراضات السابقة ونتائجها ، فالمفترض أن يكون لذلك كله سنده من واقع اللغة العربية ، وذلك بأن يكون لخصائص أصوات الحروف العربية دورها الفعال في تكوين معنى اللفظة العربية وتحديد مضمونه .

وللتحقق من صحة ذلك لجأت إلى المعاجم اللغوية أستفتيها الرأي عن مدى التوافق بين خصائص أصوات الحروف العربية وبين معاني الألفاظ التي تدخل في تراكيبها .

وعلى ألف مهل ، أخذت أتمعن صدى صوت كل حرف في نفسي ، وأتأمل طريقة النطق به لاستكشاف ما فيه من مختلف الخصائص الحسية والشعورية ، ايحائيها وايمائيها على حد سواء .

ثم قمت باستخراج معاني جميع المصادر التي تبدأ بكل حرف على حده ، أرتبها في جداول خاصة تربط بين معانيها روابط حسية أو معنوية . فإذا وجدت أن معاني المصادر قد التزمت بخصائص الحرف موضوع الدراسة بنسبة مئوية عالية ، اكتفيت بها على العموم . أما إذا كانت النسبة منخفضة فألجأ إلى استخراج معاني المصادر التي تنتهي به أيضا .

وربما عمدت في بعض الأحيان إلى استخراج معاني المصادر التي يتوسطها مثل هذا الحرف ، وذلك للتأكد من مدى تأثير خصائصه في معاني المصادر التي يشارك في تراكيبها . وهكذا الأمر من حرف إلى حرف .

على أن المشقة البالغة التي عانيت منها كانت تتمركز في اختيار المصدر ومعناه من بين عشرات المشتقات وعشرينات المعاني للكلمة الواحدة التي يتصدرها الحرف ، أو يتوسطها ، أو يقع في نهايتها . فأيها هو المصدر الجذر الذي تفرعت منه المشتقات ؟ ثم أيها هو المعنى الأصل الذي تشعبت منه المعاني ؟

فمن ألفين وتسعمائة وواحد وثلاثين مصدرا ومشتقا تبدأ بحرف النون في المعجم الوسيط . ومن آلاف المعاني ، وقع اختياري على ثلاثماية وثمانية وستين مصدرا جذرا ، قد اعتمدت لكل منها معنى أصلا واحدا أو معنيين اثنين في قليل من الأحيان .

ولكن بما أن اللغة العربية فطرية النشأة مقتبسة من الطبيعة ، فلقد كان من منطق الأمور أن أختار المصدر صاحب المعنى المحسوس باعتباره الألصق بالطبيعة والأقرب إلى الفطرة ، على أنني لم ألتزم بهذه القاعدة الحسية أحيانا بصدد الحروف الشعورية (هـ. ع. ح. خ. ص. ن...) لأن العربي قد أبدعها أصلا للتعبير عن معان شعورية غير محسوسة في مرحلة لغوية متطورة كما سيأتي .

ولقد تبين لي أن المصادر قد التزمت معانيها بخصائص أصوات الحروف القوية التي تبدأ بها وبخصائص الحروف الرقيقة التي تنتهي بها ، بنسب راوحت بين (50 - 90) في المئة من مجموع المصادر .

الافتراض السادس :

إذا صح ما توصلنا إليه من خصائص الحروف العربية ومعانيها ، فالمفترض أن يكون المعنى الأصل لكل مصدر هو محصلة معاني حروفه .
وهذا هو الامتحان الأصعب .
ولكن هل تكفي معرفة معاني ثمانية وعشرين حرفا ، لمعرفة معاني عشرات الألوف من المصادر ومشتقاتها ؟

فإذا عرفنا معاني حروف مصدر معين ، وجمعنا بعضها إلى بعض ، هل يكون حاصل جمع معانيها هو معنى المصدر إياه ؟ ولكن معنى (كلم) غير معنى (لكم) ومعنى (برق) غير معنى (رقب) وهكذا .

ومنه يتضح أن ترتيب الحروف في المصدر له الدور الأهم في تحديد معناه ...
وهذه الأهمية ترجع أصلا إلى أن العربي كان في البدء يتقمص الحدث والشيء في الطبيعة فيعبر عن ذلك بأصوات حروف تتوافق خصائصها مع حركة الحدث أو مع شكل الشيء . وهكذا كان يخصص لكل منهما اللفظة التي يضاهي الحرف الأول منها بدايته ، ويضاهي الحرف الثاني منها وسطه ، ويضاهي الحرف الأخير منها نهايته . وذلك : (سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد) ، كما قال ابن جني في خصائصه .

وهكذا كان العربي يصور حركة الحدث وشكل الشيء في الطبيعة بأصوات حروفه تصويرا سينمائيا أو فوتوغرافيا ، إن صح التعبير . وطبيعي إذن أن تختلف مواقع الحروف في اللفظة تبعا لاختلاف حركة الحدث أو شكل الشيء ، وأن يختلف بالتالي معنى اللفظة باختلاف مواقع حروفها .

كما يضاف إلى ما سبق ، أن ترتيب أصوات الحروف في اللفظة ، سواء بما يضفي الانسجام على جملتها الصوتية ، أو بما يشيع الاضطراب والنشاز فيها ، له تأثيره البالغ أيضا في محصلة معاني حروفها . فالألفاظ التي في جملها الصوتية تناسق وانسجام ، قد خصها العربي على العموم بما يتوافق معها من المعاني التي فيها رقة وأناقة وجمال وسمو وفعالية ، وما إليها من جيد المعاني إلاّ مَا نَدَرَ . والعكس بالعكس صحيح .
وهكذا يتحدد معنى المصدر الجذر بأمور ثلاثة .

بخصائص حروفه ومعانيها ، ثم بكيفية ترتيبها ، وأخيرا بجملتها الصوتية .
وهذه المعطيات الثلاثة ، وإن زادت المسألة تعقيدا ، إلا أنها هي التي تكشف لنا عن تلونات معنى كل مصدر من المصادر ، وإن شارك غيره في ذات الحروف ليستحيل بذلك وجود لفظتين اثنتين في اللغة العربية بمعنى واحد ، وإن أشارتا إلى ذات الحدث ، أو ذات الشيء ، فالمترادفات معدومة في اللغة العربية .

ولقد عقدت فصلا خاصا في هذه الدراسة للتثبت من صحة هذا الافتراض بعنوان (في التطبيق على خصائص الحروف العربية ومعانيها) ، قد استخرجت فيه معاني ستين كلمة .

والتزاما بموضوعية البحث ، وحذرا من تهمة التحيز لصالح هذه الدراسة بمعرض اختيار الأمثلة ، ورغبة مني في تحديد المعاني الأصل لكثير من مفاهيمنا المتداولة ، فقد عمدت إلى حصر هذه الأمثلة من الكلمات في قطاعات أربعة ، هي :

الأحداث في الطبيعة ، والقيم ، والنقائص ، والمفاهيم الفلسفية والاجتماعية . ولما كان كل ثلاثي قد جاء من مقطع جذر ثنائي الحروف بزيادة حرف ثالث ، وكان كل مقطع ثنائي قد جاء من حرف جذر بزيادة حرف ثان ، فلقد عمدت إلى استخراج معنى كل كلمة منها وفق طرائق أربع :

بالرجوع إلى معناها في المعاجم ، ثم إلى معاني أسرتها من المشتقات ، فإلى معاني مقاطعها الثنائية الحروف ، وأخيرا إلى خصائص حروفها المتحصلة لدينا من هذه الدراسة .

وقد لوحظ أن المعاني المستخرجة للكلمة الواحدة بحسب هذه الطرائق الأربع ، كانت على العموم تتضافر على الكشف عن معناها الأصل ،

بكثير من الدقة والوضوح ، كما كانت تكشف عن أسباب تنوع معاني المصدر الواحد ومشتقاته ، وإن تناقضت في بعض الأحيان . كما كانت تكشف أيضا عن أخطاء المعاجم في تفسير بعض الكلمات ولقد أشرت إلى تلك الأخطاء أحيانا .

ولكن كيف كان السبيل إلى معرفة المعنى غير الحسي في المفهوم الفلسفي المجرد ، من لفظة قد أبدعت أصلا للتعبير عن معنى محسوس ؟

لما كان من المتعذر أصلا على العربي تقمص المعاني المجردة غير المشخصة ، وهربا من الرمزية الاصطلاحية التي تتعارض مع نزعته الفنية ، فقد عمد إلى الافادة من وجود علاقة ذهنية معينة تربط بين المعنى الحسي لمصدر جذر معين ، وبين المعنى غير الحسي الذي يجول في خاطره ، فاستعار المصدر بالذات أو واحدا من مشتقاته ، للتعبير عن هذا المعنى المجرد .

وهكذا كان لابد لي من بذل المزيد من الجهد للكشف عن الرابطة الذهنية بين المعاني الحسية الأصلية للكلمات وبين معانيها غير الحسية ، ولا سيما ما يتعلق منها بالمفاهيم الفلسفية ، كما في عقل البعير (ربطه) ، وعقل الأشياء (أدرك كنهها) . العدل ، بكسر العين والعدالة ، الحق بضم الحاء والحق بفتحها ...

ولو أنني اقتصرت في الأمثلة المضروبة من الكلمات ، على ما يدل على المعاني الحسية ، لما لاقيت في استنباط معانيها أي صعوبة تذكر ، بمجرد الرجوع إلى معاني حروفها . ولكنها الموضوعية في البحث ، والنزاهة في التقصي .

على أن هذه المفاهيم الفلسفية ، وما إليها من القيم والنقائص ، قد أتاحت لي فرصة نادرة للكشف عن قدرة ذهن العربي على التجريد انطلاقا من المحسوس ، وعلى مدى صدق حدسه الفني الذكي البكر بمعرض استنباط الرابطة الذهنية بين المعاني الحسية للألفاظ وبين المعاني المجردة ، مما يكشف عن عمق نظرة الانسان العربي في الوجود .

وهكذا بانتهائنا مع الافتراض السادس إلى هذا التطابق بين معاني حروفها على وجه ما سبق بيانه ، فإن هذه الحقيقة تنسحب بالضرورة على جميع الافتراضات السابقة ، بدءا من فطرية اللغة العربية ، وانتهاء بما تحصل لدينا من خصائص الحروف العربية ومعانيها .

الافتراض السابع :

كل أثر فني أصيل يحمل بالضرورة نفحة من روح مبدعه الفنان ، لينطبع بطابعه الشخصي المميز ، عمارة كان الأثر أو نحتا أو لوحة أو شعرا أو قطعة موسيقية . فلا يصعب على ذواقة الفنون الاصلاء مع هذا الطابع المميز ، أن ينسبوا الآثار الفنية المجهولة الانساب إلى أصحابها .

فإذا صح ما سبق وافترضناه ، من أن الانسان العربي قد أبدع حروفه عفو فطرته السوية ليعبر بها عن أحاسيسه ومشاعره ، فإنه لابد للحرف العربي أن ينطبع بطابع الشخصية العربية .

فتعامل الانسان العربي مع هذه المادة الصوتية من الحروف طوال آلاف كثيرة من الاعوام قد أنشأ علاقة عضوية متميزة بين شخصية الانسان العربي وبين خصائص الحرف العربي .

فكما أن الانسان العربي قد مازج بين القيم الجمالية والقيم الأخلاقية فيما هو أصيل من تقاليده وعاداته ومؤسساته ، فكانت المقامات الرفيعة وقفا على ذوي المواهب والمناقب والميول السامية والعكس بالعكس صحيح ، إلا فيما ندر ، كما سيأتي ذلك

مفصلا في كتابي المقبل ((الجذور الثقافية في الشخصية العربية)) – كذلك سلك الانسان العربي هذا النهج الفني الأخلاقي إياه مع حروفه ومعانيه . فالحروف التي في أصواتها تناسق وانسجام وفعالية ، قد خصصها العربي بما يتوافق مع صداها المحبب في النفس ، من معاني الشهامة والسمو والصفاء والفعالية ، وما إليها من القيم الجمالية والانسانية . أما الحروف التي في أصواتها فجاجة واضطراب ورخاوة ونشاز ، فقد خصصها بما يناسبها من معاني القبح والنقائص الانسانية ، كما سيأتي مفصلا في دراسة الحروف العربية . روابط صحيحة متبادلة بين القيم الجمالية في أصوات الحروف العربية ، وبين القيم الانسانية في معانيها ، تؤكد صحة ماذهبت إليه من أنه (لا فن بلا أخلاق ، ولا أخلاق بلا فن) .

على أن الحرف العربي قد بلغ أقصى أبعاده الفردية في القافية ، قبة لكل بيت من الشعر الجاهلي ، ثم في الحروف النورانية يرتل المؤمنون أصواتها بخشوع ما يرتلون آيات الله في قرآنه الكريم .

كما بلغت شخصية الانسان العربي أقصى أبعادها في البطل قبة لكل قبيلة ، وفي النبوة قبة لكل مرحلة .

ومع هذا التطابق الأخير بين ((شخصية)) الانسان العربي ، و ((شخصية)) الحرف العربي نكون قد انتهينا من هذه السلسلة من الافتراضات ونتائجها إلى حقيقة ثابتة أخيرة تنسحب بحكم المنطق الرياضي على ما سبقتها من الافتراضات والنتائج إلى أن نصل إلى مقولة :
((فطرية اللغة العربية)) .

الحروف الجوفية / أهميتها / نشأتها

الحلقة الثانية :

أولا : حول أهمية الحروف الجوفية :

لما كانت الحروف الزراعية إيمائية كالحروف الجوفية كما أسلفنا في الحلقة السابقة ، فمن المستحسن أن نكشف عن أهميتهما معاً بمعرض مشاركتهما في تراكيب حروف المعاني .

فباستعراض حروف (الجر والعطف والنصب والجزم والنفي والشرط والنداء والجواب والاستقبال ...) إلى واحد وثلاثين نوعاً من حروف المعاني ، نجد أن دوران بعض الحروف العربية فيها يبلغ أضعاف دوران بعضها الآخر .

وبإحصاء ما جاء في شروح معاني المفردات في كتاب (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لأحمد بن هشام) ومعظمها من حروف المعاني ، عثرنا على (87) مفردة ، تتألف الواحدة منها من حرف واحد أو أكثر ، قد شارك في تراكيبها (24) واحداً من حروف البناء ، تكررت فيها (185) مرة .

ولفت انتباهي أن دوران بعض الحروف الغابية والزراعية قد بلغ أضعاف دوران الحروف الرعوية . فلقد تكرر دوران الحروف الجوفية (الالف مهموزة ولينة) (الواو والياء) على التوالي (32 / 7 / 5) مرات . وتكرر دوران الحروف الزراعية (اللام والميم والفاء) على التوالي : (32 / 17 / 3) مرات .

أما الحروف الرعوية ، فكان دوران حروف (ن / ك / ع / ب / د / س) على التوالي : (15 / 11 / 10 / 8 / 7 / 6) مرات . وكان دوران بقية الحروف يتردد بين (1 / 3) مرات باستثناء حرفي (ذ / هـ) كان دورانهما (7 / 5) مرات .

وباستعراض واحد وثلاثين نوعاً من حروف المعاني في كتاب (جامع الدروس العربية لمصطفى الغلاييني) عثرنا على (139) حرفاً ، قد شاركت في تراكيبها الحروف الجوفية (ا / و / ي) على التوالي (81 / 14 / 11) مرة . وشاركت الحروف الايمائية (ل .م . ف) على التوالي (55 / 28 / 2) مرة . وشاركت الحروف الرعوية الايحائية (ن. ك. ع. ب. د. س) على التوالي (43 / 10 / 2 / 4 / 1 / 2) مرة . وكان دوران بقية الحروف الرعوية يتردد بين (1 / 5) مرات . وذلك بنسب مقاربة لما لحظناه لدى ابن هشام .

ولقد شاركت الحروف الغابية والزراعية في تراكيب (119) حرفاً معنوياً من أصل (139) . مع الاشارة إلى أن الحرف المعنوي الواحد منها كان يتكرر بذاته في أكثر من نوع واحد من أنواع حروف المعاني ، لشتى الاستعمالات والمعاني .

وهذا يؤكد تفوق الحروف الغابية والزراعية على الحروف الرعوية في قطاع الحروف المعنوية أقدم المستحاثات الأثرية في اللغة العربية .

على أن الحروف الغابية والزراعية لايستمدان أهميتهما من كثرة دورانهما في حروف المعاني فحسب ، وإنما لأمرين آخرين أيضاً .

1 – كثرة دوران حروف المعاني التي تشارك في تراكيبها هاتان الفئتان من الحروف في اللغة العربية المحكية والمكتوبة .

2 – كثرة تفرعات معاني كل حرف معنوي منها وتنوع استعمالاته بما يتلاءم في معظم الأحيان مع خصائص ومعاني حروف البناء التي تشارك في تركيبه . فكان لحرف اللام لدى ابن هشام (29) معنى واستعمالاً . وكان لحروف (الهمزة والباء والفاء) على التوالي (14 / 14 / 15) معنى واستعمالاً .

وكان لحروف (عن . أو . في . على . إلى) على التوالي (13 / 12 / 10 / 9 / 8) معاني واستعمالات .

ولما كانت هاتان الفئتان من الحروف الايمائية هما قوام معظم حروف المعاني أقدم المستحاثات في اللغة العربية ، لبساطة تراكيب معظمها (من حرف واحد أو حرفين) ، فإن ذلك يقطع بأنهما هما الألصق طبيعة ونشأة بأصول اللغة العربية ، وبالتالي الأبعد غوراً في التاريخ من الحروف الرعوية .

ولما كانت سلامة استعمال حروف المعاني متوقفة على معرفة حقيقة معانيها ، فإنه لابد أولاً من معرفة أصول معاني الحروف الغابية والزراعية التي شاركت في تراكيب معظمها . ولمعرفة معاني هاتين الفئتين من الحروف ، لابد من العودة إلى نشأتهما البكر ، فنرى كيف ارتبطت معاني كل حرف منهما بخصائصه الايمائية التمثيلية ، فاستقر عليها طوال آلاف الأعوام .

وبذلك لا نفهم معاني حروف المعاني التي تشارك الحروف الايمائية في تراكيبها فحسب ، وإنما سنعرف أيضا الأسباب الحقيقية التي دعت الانسان العربي إلى استعمال كل واحد من الحروف المعنوية في معظم معانيه ووظائفه المتطورة الراهنة . وهذا ما يساعدنا على الكشف عن الأخطاء التي ارتكبت في شروح معاني بعض حروف المعاني ، سواء بإسناد وظائف لها لاتملك مؤهلاتها ، أو بعدم الاهتداء إلى وظائف بعضها الآخر .

ولئن كانت هذه الدعوة بلزوم الرجوع إلى أصول لغتنا بحثاً عن معاني حروفها ومفرداتها تتعارض مع ما استقر عليه رأي علماء اللغة الغربيين ومن تبعهم من دكاترتنا ، من حيث عدم جدواها ، إلا أن ما لايصح على اللغات الغربية الاصطلاحية ، يصح بالضرورة على اللغة العربية إذا كانت فطرية وهي فطرية النشأة فعلا كما سيأتي .

ثانيا : حول نشأة الحروف الغابية (ا. و. ي) :

كيما نستطيع تعليل الخصائص الايمائية التمثيلية التي علقت بهذه الحروف طوال آلاف كثيرة من الأعوام توصلا لمعرفة معظم وظائفها ومعانيها ، لابد لنا من الرجوع إلى المرحلة الحياتية التي نشأت خلالها ، ولو باقتضاب شديد .

فهذه الدراسة عن حروف المعاني هي إحدى التطبيقات الميدانية لمقولة (فطرية اللغة العربية) على واقع التاريخ والمعاجم اللغوية .

فالقول بفطرية اللغة العربية يستدعي القول بأن الانسان العربي هو وحده الذي أبدع حروفه ومن ثم لغته في الجزيرة العربية ، قد اقتبسهما مباشرة من الطبيعة المادية والانسانية ، وطورهما معاً عبر مراحله الحياتية . لا يجرح هذا القول أن يكون ثمة لغات أخرى تشارك اللغة العربية حروفها قد سميت خطأ أو تآمراً (بالسامية) . فهي عروبية جميعاً قذ خرجت من الجزيرة العربية مع الموجات الرعوية التي طردها جفاف ما بعد العصر الجليدي الأخير ألف عام بعد ألف ، قبل أن تستوفي لهجاتها أسباب تطورها . أما اللغة العربية وريثة تلك اللهجات ، فقد بقيت في مهدها تتفاعل مع ذات البيئة الصحراوية وذات الحياة البدوية على ألسنة وفي أسماع هزاجها وشعرائها وأنبيائها إلى أن استوفت شروط نضجها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم .

والقول بغابية الحروف الجوفية يستدعي إقامة الدليل على أن المرحلة الغابية لها جذورها في هذه الحروف طرائق في التعبير تدل على معانيها .

ففي المرحلة الغابية أقدم المراحل الحياتية التي مر فيها إنسان الجزيرة العربية إبان العصر الجليدي الأخير قبل عشرات ألوف الأعوام ، كان لابد له أن يستخدم الصراخ والأصوات الهيجانية مترافقة مع الحركات الجسمية ، بمعرض التواصل مع أبناء جنسه . وشأنه في ذلك شأن أي إنسان بدائي آخر على وجه الأرض .

فالحركات الجسمية سواء كانت هيجانية أو عفوية أو إرادية ، إنما هي متأصلة في دنيا التواصل الانساني منذ ملايين الأعوام حتى الآن . فقد لاحظ الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) أهمية الاشارة (أي الحركة الجسمية) بمعرض الدلالة على المعنى . كما يؤكد العالم (بيردوسل) مبدع علم الحركات الجسمية في الخمسينات من هذا القرن أن نسبة (سبعين في المئة) من التواصل بين الناس يتم بالحركات الجسمية (يد . رأس . عنق . شفة . لسان . فم . عين . حاجب ، جفن . قسمات . وجه . أصبع . ذراع . رجل . إلخ ...) .

وهذا الترافق الغريزي بين النطق والحركات الجسمية ، يعود إلى أن المناطق الدماغية المتعلقة بالنشاط التقني وصنع الأدوات مترابطة ترابطاً متبادلا مع المناطق الدماغية الخاصة بالنطق (كتاب علم اللغات لجورج مونين . ترجمة د . بدر الدين القاسم ص 28 / 29) .

ولاشك في أن الانسان العربي قد أبدع المزيد من أنواع الصراخ والحركات الجسمية في المرحلة الغابية تلك تعبيراً عن حاجاته ومعانيه المحدودتين ، بما يتلاءم مع مستواه البدائي آنذاك . ولذلك كان من البداهة أن يسقط الكثير من تلك الأصوات والحركات في المراحل الحياتية التالية مما لم يعد بحاجة إليه . فلا يبقى منهما إلا ما يتلاءم مع مستوياته الحضارية المتطورة المثالية ، وما يلبي حاجاته ومعانيه المستجدة ، وإن بكثير من التلطيف والتهذيب .

ولما كانت أصوات الحروف الجوفية (ا . و . ي) والهمزة المزمارية هي أقرب الأصوات الانسانية إلى الهيجاني ، والأسهل نطقاً ، فقد امتدت إليها شعوب العالم جميعاً ، لا تخلو منها لغة حية ولا لهجة بدائية ، قد ورثناها كغيرنا من وسائل الاتصال في العهود الغابية . ولكن بعد أن تلطفت أصواتها الهيجانية وتهذيب حركات الرأس الايمائية التي كانت ترافقها عبر العصور ، فإننا لانكاد اليوم نستبينها عند النطق بأصواتها إلا بمزيد من التمعن والتدقيق .

فما هي هذه الحركات الايمائية الغابية ، وما هي دلالاتها ؟ ثم ما تطبيق ذلك على واقع المعاجم اللغوية وحروف المعاني ؟

كيف نهتدي إلى خصائص الحروف العربية ومعانيها ؟

الحلقة الثالثة :

أولا : حول أبعاد هذه المشكلة :

لقد عرضنا سابقاً أنه لابد أولاً من معرفة معاني حروف المباني توصلاً لمعرفة معاني حروف المعاني وأصول استعمالها . ولكن أين نعثر على معانيها ؟ .

ما أحسب أن عالم لغة عربية إلا وقد عمل على تحديد معاني بعض الحروف العربية ووظائفها في سياق أبحاثه اللغوية ، ولا سيما الصرفي والنحوي منها ، وبصورة خاصة ما يتعلق منها بحروف المعاني .

ولكن هل يصح لنا الركون إلى ما توصلوا إليه ، ولما يقل أحد منهم بانتماء الحروف العربية إلى المراحل الغابية والزراعية والرعوية ، ولم يتطرق إلى خصائصها الايمائية ؟ . مما يؤكد استحالة اهتدائهم إلى حقيقة معانيها جميعاً ، ولئن أصابوا في تحديد معاني بعضها باعتمادهم خصائصها الايحائية ، إلا أنه قد فاتهم ما يتعلق بالايمائي من خصائصها . وهكذا كان لابد لي من اتباع نهج خاص في هذا الصدد يراعي مسألة الايمائي والايحائي معاً في أصوات الحروف العربية ، ومسألة انتمائها إلى المراحل الحياتية الثلاث .

ويستحسن بنا أن نجري أولاً مقارنة سريعة بين نهج بعضهم ونهجي في استخلاص معاني حروف المباني .

ثانيا : علماء اللغة العربية بين النصوص ومعاني الحروف :

تنطلق هذه الدراسة من مقولة (فطرية اللغة العربية) كما أسلفنا سابقاً . بمعنى أن أصولها ضاربة في أعماق التاريخ قد اقتبست مباشرة من الطبيعة ، وليست مجرد مصطلحات عقلية قد تواضع الناس على معاني ألفاظها . فقد استقر رأي علماء اللغة العربية القائلين بفطرتها ، على أن معنى كل كلمة عربية هو بالضرورة محصلة معاني الحروف التي تشارك في تركيبها .

ولقد حاول (ابن جني) ، وهو من أقدم القائلين بفطرية اللغة العربية أن يستخلص معاني بعض الحروف بالرجوع إلى معاني الكلمات التي تشارك في تراكيبها . فاستهدى تارة بقاعدته الذكية : ((لا ينكر تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)) . واستهدى تارة أخرى بقاعدته الأذكى : ((حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث)) . كما حاول

(العلايلي) وهو من أحدث القائلين بها أن يحدد معاني الحروف العربية : ((بما تسمح به النصوص)) .

ولئن أصابوا جميعاً في تحديد معاني بعض الحروف ، إلا أنهم قد أخطأوا في تحديد معاني بعضها الآخر .

ويقول ابن جني : (الحاء) فيه رقة ، وفي (الخاء) غلظة . فقيل (نضح) للماء القليل ، و (نضخ) للماء الكثير . ثم يقول : (القاف) فيه صلابة ، وفي (الخاء) رخاوة . فقيل (قضم) لليابس ، و (خضم) للرطب . وبذلك يكون ابن جني قد أسند لحرف (الخاء) خاصيتين لاتخلوان من التعارض .

وقد لاحظ الارسوزي العلاقة بين معاني التخريب في المصادر التي تبدأ (بالخاء) وبين ظاهرة التخريب في صوتها ، كما في : (خرَّ خريراً / خرب / خرس / خرم / خرق ...) فأسند هذه الخاصية الصوتية (للخاء) . وكان هذا الاكتشاف فاتحة اهتمامه باللغة العربية بمعرض البرهان على فطرتها .

أما العلايلي فقد قال عن (الخاء) بأنها : ((للمطاوعة والانتشار والتلاشي)) .

وهكذا لم يهتد أحد من علماء اللغة العربية إلى مختلف معاني (الخاء) ، لأنهم لم يتبعوا نهج الانسان العربي في إبداع كلماته تعبيراً عن معانيه بما يتوافق مع صدى أصوات حروفها في النفس . فالانسان العربي ، تأثرا منه بخصائص الخنخنة الكريهة والرخاوة والتخريب في صدى صوت (الخاء) في النفس ، قد جعلها في مقدمة المصادر التي تدل معانيها على أمراض وعيوب نفسية وأخلاقية وجسدية وعلى القذارة والبشاعة والفحش ، وما إليها من الرخاوة والتخريب والتفاهة والاضطراب ، بما نسبتها (80) في المئة . كما كان ثمة (13) مصدراً تدل معانيها على ما يفيد الرقة والصفاء والبضاضة ، بما يتوافق مع صوت (الخاء) مخففاً مرققاً ، منعماً ، بنسبة (5) في المئة فقط . وهذا ما يجيز لنا القول بأن (الخاء) هي سلة النفايات التي وضعها الانسان العربي في بنيان لغته الشامخ الأنيق . ولو أنهم استكشفوا خصائص صوت (الخاء) ابتداء لعثروا على حقيقة معانيها بالرجوع إلى المعاجم والنصوص . ولهذا السبب قد ابتعد العلايلي كثيراً عن حقيقة معاني معظم الحروف العربية في كتابه (تهذيب مقدمة اللغة) .

ثالثا : اعتماد خصائص الحروف العربية لمعرفة معانيها :

إن فطرية اللغة العربية تحتم وجود رابطة أصيلة بين خصائص الحروف العربية وبين معانيها . ولذلك فإن خصائصها الايمائية والايحائية هي بداهة أصول معانيها ، وليس العكس . فبدل أن ألجأ إلى النصوص لمعرفة خصائص الحروف ومعانيها كما فعل غيري ، قد بدأت بالتحري عن خصائصها أولاً ثم التحقق من توافق هذه الخصائص مع معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ، متبعاً في ذلك النهج التالي :

أ – ألفظ صوت الحرف منفردا بشيء من التفخيم . وذلك لتضخيم الحركات الايمائية التي يمكن أن ترافقه ، عودة بها إلى مراحلها البكر ، قبل أن يتناولها الانسان العربي بالتهذيب والتلطيف في مرحلة شاعرية لاحقة . ثم أتأمل طريقة النطق بصوته بحثاً عن خصائصه الايمائية .

ب – ثم أتأمل صدى صوته المفخم في النفس ، بحثاً عن خصائصه الايحائية الأصلية قبل مرحلة التهذيب والتلطيف .

ج – وأخيراً ، ألجأ إلى أحد المعاجم اللغوية . فإذا كان الحرف (ذكوريا) ، في صوته قوة أو

صلابة أو شدة أو غلظة أو فعالية أو حدة ، وما إليها أكتفي في معظم الأحيان باستخراج أصول معاني جميع المصادر الجذور التي تبدأ به بحثاً عن التوافق بينها وبين خصائصه الايمائية والايحائية . وأقصد بالمصادر الجذور ما هو غير دخيل ولا معرب ولا مولد ولا محدث ، ولا ما يدل معناه على نبات أو حشرة أو حيوان أو جماد لا اشتقاق له . كما أقصد بأصول المعاني ، الحسي منها لا المعنوي ، مما هو ألصق بالطبيعة أصل نشأتها ونشأة حروفها . وذلك للكشف عن الرابطة الأصيلة بين خصائص الحروف ومعانيه .

أما إذا كان الحرف (أنثويا) ، في صوته رقة أو أناقة أو نعومة أو دماثة ، فألجأ إلى المصادر الجذور التي تنتهي به أيضا . وقليلاً ما ألجأ إلى المصادر التي يتوسطها . فالحروف الأخرى تزاحمه في مواقع قوتها على معاني المصادر ولا يبقى له منها إلا القليل . وذلك على العكس مما يدعيه بعض علماء اللغة من أن الحرف الوسط هو أقوى الحروف في الكلمة ، بدليل قابليته للتضعيف كما في (قسّم) بتشديد (السين) . وفاتهم أنها قوة مصطنعة ، فالفعالية الحقيقية في معنى هذه الكلمة هي لحرف (القاف) وليس لحرف (السين) .

وشأن الانسان العربي مع حروفه في لغته ، كشأنه مع الذكورة والأنوثة في مجتمعه . فالرجل البدوي كان أوحى بخصائص الذكورة عندما يتصدر الصفوف ، بمقابل ما كانت المرأة البدوية أوحى بخصائصها الأنثوية عندما تستكين في المضارب الخلفيّة . وذلك لأن أصوات الرجال والنساء والحروف يجهر بها ويشد عليها عندما تتصدر الصفوف والحروف ، وتلفظ مخففة مرققة منعمة ، في مؤخرة الصفوف والحروف . مما يجعلها محكومة بقاعدة (وضع المناسب في المكان المناسب) . ما شذّ عن هذا النهج العربي الرعوي عبر التاريخ إلاّ قلّة من الرجال والنساء والحروف أيضاً ، ممن تمتعوا بشخصيات قوية .

وبتطبيق هذا المنهج على الحروف العربية جميعاً في المعجم الوسيط ، تبين لنا أن هناك حروفاً قوية الشخصية قد طبعت بخصائصها الايمائية والايحائية معاني المصادر التي تبدأ أو تنتهي بها بنسب راوحت بين (60 / 90) في المئة . كما كان إلى جانبها حروف متوسطة الشدة قد اقتصر تأثير خصائصها في معاني المصادر على نسب راوحت بين (50 / 60) في المئة . واقتصر تأثير خصائص حرف (التاء) في معاني المصادر التي تبدأ بها على (29) في المئة وحرف (الحاء) على (22) في المئة . فكانا بذلك أضعف الحروف شخصية .

أما الهمزة المزمارية والحروف الجوفية الثلاثة ، فلم ألحظ أن ثمة رابطة واضحة بين خصائصها وبين معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها . فهل يجيز لنا ذلك أن نحكم بأنها معدومة الشخصية ، وأنها بلا معان ؟ سنرى .

الحركات الايمائية في الحروف الغابية

الحلقة الرابعة :

كنا عرضنا في الحلقة الأولى أن الحروف الجوفية الثلاثة (الألف والواو والياء) قد ورثناها عن المرحلة الغابية كبقية شعوب العالم البدائية والحضرية على حد سواء .

ولكن ما هي أصول الحركات الايمائية التي ترافق أصواتها ، وماهي دلالاتها في لغتنا ؟

أولاً : الألف

أ / الألف المهموزة :

تقرأ الألف في أول الكلمة (همزة) . يحصل صوتها بانطباق فتحة المزمار وانفراجه الفجائي قبل أن يصل النفس إلى الحنجرة ، فكانت بذلك مزمارية المخرج ، لا حلقية ولا جوفية .

إذا لفظت الهمزة بشيء من التفخيم يترافق صوتها مع حركة انفراج الفكين واسعاً وحركة الرأس إلى الأعلى . فيحاكي صوتها الانفجاري بذلك نتوءاً في الطبيعة ، ويأخذ صورة الظهور والبروز والحضور ، كمن يقف فوق مكان مرتفع .

ولقد أفاد الانسان العربي من خصائصها هذه ، فاستخدمها منفردة لنداء القريب (أفاطم مهلاً) ، وممدودة لنداء البعيد (آزيداً) . كما استخدمها للاستفهام والطلب والتقرير والتهكم والأمر والتعجب ، وما إليها من الوظائف و المعاني التي عددها ابن هشام ، بما يتوافق مع ما ذكرناه من خصائصها .

كما جعلها في مقدمة أسماء الألوان الأصلية ، للوضوح (أحمر . أبيض) ، وفي مقدمة الضمائر الظاهرة للمتكلم والمخاطب (أنا . أنت) للحضور والظهور ، فحرم الغائب منها (هو هي) . كما جعلها في مقدمة الأفعال اللازمة للتعدية (أكرمه) ، وفي صيغة أفعل التفضيل (أشجع) للبروز والظهور .

وكان للهمزة نصيبها الوافي من حروف المعاني ، قد تصدرت بعضاً من حروف (النداء والشرط ، والتفسير ، والعرض ، والمصدرية والتشبيه والتوكيد ، والصلة) . وذلك للافادة من خصائصها الايمائية والايحائية في الوضوح والظهور والحضور بمعرض التعبير عن وظائف هذه الحرف ومعانيها .

أما إذا وقعت (الهمزة) في وسط الكلمة أو نهايتها ، فإن صوتها الانفجاري يحاكي عثرة في الطبيعة . (فأس . داء . كأداء) .

ب / الألف اللينة :

تقرأ الألف في وسط الكلمة ونهايتها (ألِفاً ليّنة) . يخرج صوتها من جوف الفم مع حركة انفتاح الفكين وارتفاع الرأس إلى أعلى ، فيوحي صوتها بالامتداد إلى الأعلى .

ولقد أفاد العربي من هذه الخصائص فجعلها في نهاية (أنا) ، لمنح شخصية المتكلم مزيداً من السمو والرفعة في مواجهة المخاطب (أنت) ، الذي أنهاه بحرف (التاء) الرقيق الصوت الضعيف الشخصية ، استعلاء للمتكلم على المخاطب . وحرك هذه (التاء) بالكسرة للمخاطبة إمعاناً في الاستعلاء عليها . وجعل (الألف) في صيغ (فاعلٍ وفعّال ومفعال) للفعالية والمبالغة .

وقد جعلها في نهاية (إلى) لمنح الحدث المتعلق بها فسحة في المكان والزمان . فيقال : (ذهبت إلى البيت) ، ولا يقال : (ذهبت للبيت) ذلك لأن(اللام) للالتصاق كما سيأتي ، فلا فسحة معها لحدث الذهاب في المكان ، ولا في الزمان . ولهذا السبب يقال : وقفت منه ((وجهها لوجهه)) ، ولا يقال : ((وجها إلى وجه)) .

ولما كانت حركة الرأس إلى الأعلى في نهاية التواصل ، ايماء أو كلاما تشير إلى الرفض أو النفي ، فقد أسند العربي للألف في نهاية حروف المعاني (لا . ما . كلا) ، وظائف الرفض والنفي ، ضربا من الثبات والاستقرار .

ثانيا : الواو

يحصل صوتها بتدافع النفس في جوف الفم مع انضمام الشفتين على شكل حلقة ضيقة تسمح بمروره إلى خارج الفم . يترافق صوتها المفخم مع حركة اندفاع الفكين والرأس إلى الامام مما يشير إلى الفعالية والاستمرار .

لقد عدد ابن هشام في كتابه (مغني اللبيب) نيفا وثلاثين قسماً ومعنى (للواو) . كان العطف من أهم أقسامها ومعانيها الأصلية . فهي لديه ولدى الغلايني (لمطلق الجمع على تقارب أو تراخ في الزمن) . واختلف الفقهاء في مسألة ترتيب متعاطفيها .

ونحن نرى أنه لا مجال للترتيب معاً وذلك بحكم تدافع النفس في جوف الفم عند خروج صوتها مما يضاهي تدافع متعاطفيها بلا ترتيب في الزمان والمكان ففي قدم زيد وسعد وخالد قد يكون خالد هو أول القادمين . وكان الغلايني على هذا الرأي الصواب .

ولهذا السبب من تدافع النفس في إخراج صوتها ، جعلت ضميراً للذكور لدى ابن هشام حرفا دالا على الجماعة لدى سيبويه .

كما جعلها العربي في صيغة (فعول) للفعالية والمبالغة (أكول) ، وعلامة رفع جمع المذكر السالم إذا كان فاعلاً أو مبتدأ للفعالية .

ثالثا : الياء

صوتها في جوف الفم المترافق مع حركة الفك السفلي والرأس إلى تحت باتجاه الصدر ، يحاكي حفرة عميقة في الطبيعة ، على العكس من صوت (الهمزة) .

فأفاد العربي من خاصية الحفرة في صوتها وجعلها في نهاية الحرف (في) للاحتواء ، وفي صيغ التصغير ، وكأن الأسماء المصغرة قد وقعت في حفرة (رجيل . عو يميد) . كما جعلها علامة نصب وجر جمع المذكر السالم والمثنى ، ليتحملا في هذا المكان الخفيض الذي استقرا فيه وقع الاعتداء عليهما مباشرة أو بواسطة الحروف .

ولما كانت حركة الفك السفلي التي ترافق صوت (الياء) تشير إلى الذات ، فقد ألحقها العربي مشددة بالأسماء للنسبة (سوري . شرقي) . كما جعلها في صيغة (فعيل) ، إما لرسوخ الحالة المعنيّة في ذات صاحبها (عليم . حكيم) ، وإما بمعنى المفعول (قتيل) ، بما يتوافق مع خصائص (الياء) الايمائية والايحائية في كلا المعنيين .

ولكن لماذا ضعف تأثير هذه الحروف في معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ؟

على الرغم من أهمية الحروف الغابية في القطاع الصرفي ، على وجه ما ألمحنا إليه آنفا فإنه لا رصيد يذكر لخصائصها الايمائية والايحائية في معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها كما أسلفنا . فلم ذلك ؟

هناك سببان اثنان :

الأول : فقرها في الايحاءات الحية والشعورية : لقد اقتصرت خصائص (الألف والواو والياء) على نقل الأبعاد الثلاثة في الطبيعة إيماء : إلى فوق وأمام وتحت . ولا موحيات حسية أو شعورية أخرى في أصواتها .

ونظراً لفقرها في الموحيات ، فإن الانسان العربي لم يجد مجالاً للتعبير بها عن معانيه الحضارية ، عبر مراحل تطوره . فقل بذلك تأثيرها المباشر في معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ، ولو كان لها دورها الثانوي في موسيقى الكلمة وتلوين معانيها .

والثاني : يتعلق بطبيعة أصواتها : كان الانسان العربي في مراحله اللغوية الأولى يكثر من استعمال الحروف الجوفية الثلاثة في تواصله مع أبناء جنسه بكثير من المد والتفخيم ، على مثال مانلاحظ ذلك لدى أبناء اللهجات الافريقية البدائية ، كما في لهجة الموسي في (فولتا العليا) .

ولكن ما إن بدأت اللغة العربية تأخذ طابعها الشاعري على أيدي مزاجها وشعرائها حتى عمل الانسان العربي على إماتة هذه الحروف الغابية لعلة الطابع الغوغائي في أصواتها . وقد أتبع في ذلك كما لاحظ العلايلي في مقدمته اللغوية ثلاث طرائق ، كان أهمها تحويلها إلى حركات شكل : الألف اللينة إلى فتحة ، والواو إلى ضمة ، والياء إلى كسرة ، فانعدم اللغو في لغته الشاعرية . وهكذا تكون الحروف الجوفية هي الأقدم في الزمن من حركات الشكل بآلاف كثيرة من الأعوام على العكس مما ادعاه بعض علماء اللغة العربية وفقهاؤها .

حول أصول حركات الشكل ودلالاتها

الحلقة الخامسة :

أولا : حول إماتة الحروف الجوفية في اللغة العربية :

لقد انتهينا من الحلقة السابقة إلى أن الانسان العربي قد عمل على إماتة الحروف الجوفية (الألف اللينة والواو والياء) في ألفاظه لسببين :

ا – فقر أصواتها بالموحيات الحسية والشعورية ، فانصرف عنها ما استطاع لعجزها عن التعبير عن أحاسيسه ومشاعره الانسانية في معانيه المستجدة عبر مراحله الثقافية المتطورة .

ب – عدم استعذابه غوغائية أصواتها في لغته الشاعرية الراقية . وكان ذلك بترجيح شديد بفعل الشعراء أنفسهم .

ولقد اتبع العربي في ذلك كما لاحظ العلايلي ثلاث طرائق .

ا – بالاستعاضة عن الحروف الجوفية بحروف صامتة ، وفي مقدمتها الهمزة . بعضها قد أميت كما في (وخي) قد تحولت إلى أخي . وبعضها لا يزال حيا ، كما في (بئر من بير ، أحد من وحد ، أطم من وطم ، نشر من وشر ...) وذلك كثير.

ب – بالتضعيف كما في (نب) من نبي ، وبالحذف ، كما في (أب – أم – دم) من أبو أبوة ، أمو أمومة ، دمو دمو ياً ...).

ج – بتحويل الحروف الصائتة إلى حركات – كما أسلفنا في الحلقة السابقة – وذلك بدليل بقاء هذه الحروف في بعض الكلمات كتابة دون لفظ ، كما في (عمرو – أولئك) .

ولكن على الرغم من المحاولات المتنوعة لاماتة الحروف الغابية في اللغة العربية ، فإنها لاتزال تحتفظ بأهمية فائقة لايحظى بمثلها أي حرف عربي آخر ، وذلك في قطاعين لغويين اثنين .

الأول قديم سابق للمرحلة الرعوية الشاعرية قبل أن يعمل العربي على إماتتها ، هي قطاع حروف المعاني .

والثاني حديث من نتاج المرحلة الرعوية الشاعرية ذاتها ، هو قطاع حركات الشكل . ولكن لما كانت الحروف الزراعية الايمائية تشارك الحروف الغابية في تراكيب معظم حروف المعاني ، فإننا سنكتفي هنا بتوضيح علاقة معاني حركات الشكل

بخصائص الحروف الجوفية الثلاثة . أما الحديث عن حروف المعاني ، فسنؤجله إلى ما بعد الانتهاء من تحديد معاني بعض الحروف الزراعية الايمائية والرعوية الايحائية التي تشارك في تراكيب حروف المعاني موضوع هذه الحلقات .

فعملية تحويل هذه الأصوات الغوغائية إلى حركات ، لا ألطف على اللسان لفظا ، ولا أرق في السمع جرساً ، ولا أخطر على المعاني استعمالاً ، إنما هي أشبه ما تكون بعملية تحويل المادة البترولية الخام إلى مشتقات ، لاأنقى طبيعة ، ولا أشف منظرا ، ولا أخطر استعمالاً . وكل منهما كان قبل التحويل ، خاماً ، وغوغائياً .

ثانيا : حول دلالات حركات الشكل :

1 / الفتحة :

هي مخفف (الألف اللينة) . قد جعلها العربي في نهاية الفعل الماضي ، للاستقرار : (من مات فات) . كما جعلها في نهاية المفعول به للاستكانة والاستقرار . وذلك لأن صوت (الفتحة) في نهاية الكلمة يلفظ بأخفض نبرة ، مما يجردها من كل فعالية ، على العكس مما وقعت في أول الكلمة أو وسطها . وقد لحظنا آنفا أن الألف اللينة في نهاية حروف (لا . ما . كلا) تشير إلى مواقف الرفض والنفي ، ضرباً من الثبات والاستقرار .

وقد استثمر الانسان العربي خصائص الاستكانة والاستقرار والثبات في حركة الفتحة ، فجعلها في نهايات الأسماء المنصوبة بما يناسب أغراضها . قد جعلها علامة نصب المفعول (به ، وفيه ، ومعه ، والمطلق) ، والمنادى ، والمستثنى بإلا ، والتمييز لأنها تتحمل جميعاً فعل الفاعل إما مباشرة ، وإمَّا بصورة غير مباشرة ، بواسطة حرف أو فعل محذوف مقدر .

أما الحال ، فقد نصب بالفتحة ، إما لوقوع الفعل عليه ضمناً بصورة غير مباشرة : (سرت والنهر) ، أو للثبات والاستقرار : (هذا الهلال طالعاً يقشع الظلام)

وفي كل الأحوال فإن هذه الأسماء المنصوبة لاتدل معانيها على فعاليات كيما ترفع بالضمة ولا على الاحتواء ، أو الامتلاك ، أو على حالات ذاتية فتجر بالكسرة ، كما سيأتي وشيكاً .

2 / الضمة :

هي مخفف صوت (الواو) قد جعلت علامة الفاعل والمبتدأ للفعالية ، وعلامة الفعل المضارع للاستمرار ، إرثاً عن خصائص (الواو) ووظائفها . ولا متسع هنا للاستمرار في هذا المسار لتعليل رفع اسم كان وأخواتها أو نصب خبرها ، ولا العكس مع (أنَّ) وأخواتها ، وما يعمل عملها . وما أحسب أن تعليل ذلك سيكون أعسر ولا أغرب مما أتى به فقهاء اللغة العربية حول الكثير من إشكالاتها .

3 / الكسرة :

هي مخفف صوت (الياء) . قد جعلت علامة المجرور بأحد حروف الجر ليتحمل اعتداء الفاعل بواسطته : (سار على الطريق) . كما جعلت علامة جر المضاف إليه : للامتلاك (كتاب المعلم) أو للنسبة (دمع العين) ، أو للاحتواء : (سمك البحر) ، وذلك إرثاً عن خصائص الياء ووظائفها في الاحتواء والامتلاك والنسبة . ولم يخرج الغلايني عن ذلك في تحديد وظائف الاضافة .

ثالثا : حركات الشكل و (عين) الفعل الثلاثي :

إن أبرع استعمال لحركات (الضمة والكسرة والفتحة) يتجلى في تحريك (عين) الفعل الثلاثي . فقد

بلغ العربي في هذا المضمار شأواً بعيداً من زهافة الأحاسيس والمشاعر ، في ترف لغوي لا نظير له .

1 – قد وكل إلى (الضمة) في عين الفعل الثلاثي مخفف صوت (الواو) ووريثها مهمة التعبير عن الفعاليات المنبثقة من الذات ، كما في (أدُب ، شرُف) نبُه . رزُل ، خبُث) فكانت أفعالها لازمة إطلاقاً لاكتفائها الذاتي وعدم حاجتها إلى أي مفعول .

2 – ووكل إلى (الكسرة) مخفف صوت (الياء) ووريثتها ، مهمة التعبير عن حالات وصفات ذاتية ، مما ينبغي معها أن تكون أفعالها لازمة لاكتفائها الذاتي ، كما في (آسِف . حزِن . حقِد . وحِل . درِد . سوِد .)

ولكن لوحظ أن قلة من الأفعال قد شذت عن هذه القاعدة وذلك لسببين اثنين :

ا – إما لأن معاني بعضها يدل على حركة باتجاه الذات ، كما في (لعِق ، لقِف . لغِف ، لهِم . عشِق)

وقريب من ذلك فعل (شكِل) لاتجاه هذه الفاجعة نحو ذات الوالدين حصراً .

ب – وإما لتصحيف في نقل حركة الشكل أثناء التدوين في بداية العصر الأموي ، كما في فعل (عدِم المال) ، مما لايدل على حالة ذاتية . فكانت الفتحة أولى به ، كما سيأتي :

3 – ووكل إلى الفتحة مخفف صوت (الألف اللينة) ووريثتها ، مهمة التعبير عن الفعاليات المتجهة من الذات نحو الآخرين في الأفعال المتعدية . فحركة (الفتحة) في هذا الموقع إذا لفظت مفخمة ، كما كان العربي يفعل ذلك قبل المرحلة الشاعرية ، تمنح الأفعال مرتقى يساعدها على الاعتداء فيما إذا كانت مضامينها قابلة له ، كما في (أمَر . ضرَب . كسَر . دهَس ...) . أما إذا لم تكن قابلة للاعتداء فتظل لازمة كما في (أرَز . بقَع . بقَل . جنَح . حضَج . دجَن) .

وتأكيداً لهذا النهج ، فإن الفعل الثلاثي الواحد الذي حركت (عينه) بأكثر من حركة يلتزم معناه بما يتلاءم مع خصائص حركته ، كما في (أصل) .

فإذا حركت (عينه) بالفتحة كان متعدياً (أصَل الشَيء) استأصله . وإذا حركت بالكسرة دل معناه على حالة ذاتية وكان لازماً (أصِل اللحم) فسَد . وإذا حركت بالضمة كان لازماً ويدل على فعالية منبعثة من الذات : (أصُل النسب) . شرُف . وكذلك الأمر في (لحم) بالفتح والكسر والضم : لحَم الشيء لأمه – ولحِم بالمكان نشب – ولحُم الرجل ، كثُر لحمه .

وكما في معاني الأفعال التالية بتحريك (عينها) بالفتح أولاً وبالكسر ثانياً : (أكَل الطعام ، مضغه ، وبلعه – أكِل الرجل ، أكل بعضه بعضاً – أشَر الخشب ، نشرها – أشِر ، مرح وبطر – لسَن فلاناً ، عابه – لسِن – فضُح – لعَسه – عضه – لعِست الشفة ، اسود باطنها – عَرق العظم ، أكل لحمه – عرق ، رشح جلده – لفت الشيء ، لواه – لفِت الرجل ، حمق – عفص يده ، لواها – عفِص الطعام كان فيه مرارة وتقبض) .

وهكذا نستطيع اليوم أن نصحح الكلمات التي أصابها التصحيف أثناء التشكيل في تحريك (عين) الفعل الثلاثي بالرجوع إلى هذا النهج ، كما في (عقم) .

فقد ورد في المعجم الوسيط (عقمت المرأة والرجل (بالفتح) ، كان بهما ما يحول دون النسل . ويقال ، عقم الله المرأة والرجل ، جعله عقيماً) . كما ورد فيه أيضاً : (عقمت المرأة والرجل (بالضم) ، عُقماً فهو عقيم وهي عقيم ...) .

وبالرجوع إلى القرآن الكريم ، لوحظ أن مشتقات هذا الفعل قد اقتصرت على المصدر (عقيم) في أربع آيات فقط .

وإذن لاحرج في أن نقول بأن الأصح أن تحرك عين (عقم) بالفتح للتعدية : (عَقمه الله وعَقمها) . وإن تحرك بالكسر لمعاني العقم الحسية والمجازية وليس بالضم . وذلك لان العقم عجز ذاتي وحالة ذاتية ، تتوافقان مع خصائص الحركة الايمائية في الكسرة إرثاً عن (الياء) الغابية كما أسلفنا . فالعقم ليس فعالية ذاتية كيما تحرك عينه بالضم . وهذه الظاهرة من التصحيف غير نادرة في اللغة العربية .

فباستعراض الأفعال الثلاثية التي تبدأ بالهمزة في المعجم الوسيط عثرنا على (155) فعلاً كان منها (7) أفعال حركت عينها بالفتح والكسر لذات المعاني ، وكانت لازمة جميعاً . وهي ((أبِقَ – ازِمَ – أسِنَ – أفِرَ – أفِقَ – أقِلَ – ألِبَ .) .

ونرى أن مايدل معناه فيها على حالة ذاتية يكتفى بتحريك (عينه) بالكسر فقط وهي ((أسِن الماء ، فسد ، أفِر ، نشط – ألِبَ الجرح – برىء ظاهره دون باطنه فانتفض)) . وأن تحرك (عين) الباقي بالفتح فقط : ((أبَق – هرب – ازَم على الشيء ، عضه – أفَق ، ضرب في الآفاق – أفَل النجم ، غاب) .

وكان ثمة فعل واحد حركت عينه بالحركات الثلاث ، هو (انس) لذات المعاني : ((أنِسُ به ، فرح – انس إليه ، سكن إليه وذهبت به وحشته)) .

ونرى أن يكتفى بتحريك (عينه بالكسر فقط ، لأن معانيه جميعاً تدل على حالات ذاتية وليس على فعاليات ذاتية .

وبالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرنا على / 188 / فعلاً ثلاثياً تبدأ بحرف (اللام) و (67) تبدأ بحرف (الثاء) و (210) تبدأ بحرف (العين) .

وبدراسة معاني هذه الأفعال على واقع حركة عينها ، حصلنا على نتائج مشابهة لما لحظناه مع حرف (الهمزة) ، مما يؤكد صحة ما أسندناه إلى حركات الشكل من الوظائف اللغوية . فما حركت (عينه) بالضم كان لازماً ويدل على فعاليات ذاتية . وما حركت (عينه) بالكسر كان معظمه لازماً ويدل على حالات ذاتية – أما المتعدي منها فكان معظمه يدل على حركة باتجاه الذات ، وقلة منه كان مصحفاً . وأما ما حركت (عينه) بالفتح فكان معظمه متعدياً .

ولقد ذكر الغلايني في كتابه (جامع دروس اللغة العربية) ، خصائص الضمة والكسرة في (عين) الفعل الثلاثي ، بما يقارب ما عرضناه آنفاً . فمضموم (العين) كما لاحظ يدل على الغرائز والطبائع الثابتة وهو لازم إطلاقاً . أما مكسور العين فهو يدل على أمراض وعيوب وألوان مما يدخل في نطاق الحالات الذاتية) ومعظمها لازم .

ولكن الغلايني لم يتعرض لحركة الفتح ، ولم ينتبه أيضاً إلى العلاقة بين خصائص الضمة والكسرة الموروثة عن خصائص (الواو والياء) ، وبين معاني الأفعال الثلاثية ، على وجه ما بيناه آنفا .

وهكذا استسلم الغلايني للتراث سيراً على نهج من سبقه من علماء اللغة وأصحاب المعاجم في تحديد حركات (عين) الفعل الثلاثي ، دون أن يعير مسألة التصحيف فيها أي انتباه .

فبما أن الكتابة العربية لم تعرف الشكل حتى ما بعد جمع المصاحف في عهد الخليفة (عثمان) على يد الفراهيدي فإن شكل (عين) الفعل الثلاثي على السماع ، من المحتمل أن يكون قد تعرض بعضه إلى

التصحيف وإني لأتساءل :

أولا تستحق هذه الظاهرة اللغوية المزيد من اهتمام المجامع اللغوية وعنايتها ؟

وهكذا باعتماد الانسان العربي هذه الحركات المتأنية عن الحروف الجوفية الثلاث في ضبط التلفظ بأصوات حروف كلماته بمعرض تحديد صيغها ووظائفها ومعانيها ، تكون جذور هذه الحروف قد تغلغلت إلى كل شاردة وواردة في فصحانا العربية ، مما يمنح شخصياتها قوة فائقة وينهض بها إلى أرفع المقامات .

الجذور الغابية والزراعية والرعوية في الحروف العربية

الحلقة السادسة :

أولا : حول أصول اللغة العربية وجدوى العودة إليها :

لقد اتبع العلماء الغربيون في تحرياتهم عن (أصول اللغة) نهجين اثنين متعاكسين أحدهما يهبط مما قبل التاريخ إلى علم اللغة ، والآخر يصعد من علم اللغة إلى ما قبل التاريخ ، وانتهت محاولاتهم جميعاً إلى نتائج لاأساس علمي لها . وهذا ما دعا جمعية باريز اللغوية أن تقرر في أول نظام لها عام 1866 عدم السماح بمناقشة أي بحث يتناول أصول اللغة ، ولم يرفع هذا الحرمان . يقول العلامة توفار ((يبدو لنا من الناحية اللغوية وبعد النظر في آلاف السنين التي تشكل ما قبل التاريخ أن مشكلة أصول اللغة مستعصية على الحل)) ، كتاب تاريخ علم اللغة لمؤلفه جورج مونين (ترجمة د . بدر الدين القاسم ص 16 – 17) . وذلك لأن اللغات واللهجات التي تناولوها في بحوثهم كانت إمّا بدائية غير نضيجة بلا أصول ، وإمّا حية متطورة قد انتقلت مراراً من شعب إلى شعب ومن بيئة إلى بيئة ، فضاعت أصولها منذ آلاف الأعوام . وهكذا خلص علماء اللغة الغربيون إلى رمزية الكلمة ، فقال (سوسير) ، أحد كبار مؤسسي علوم الألسنية الحديثة : ((أن الرموز الصوتية للكلمة لا معنى لها في حد ذاتها ، أي اعتباطية . والعلاقة بين الرموز والمعاني ، على الرغم من عشوائيتها هي اصطلاحية اتفاقية ، ثابتة بالنسبة للغة الواحدة والمجتمع الواحد)) . (المجلد / 19 / ج الأول لعام 1988 ص 33) من مجلة اللسان العربي .

ولقد اتبعت هذين النهجين معاً بمعرض البرهان على فطرية اللغة العربية في دراستي عن (الحرف العربي والشخصية العربية) ، فكانت نتائجهما الايجابية متكاملة ومتطابقة . وذلك لأن اللغة العربية ظلت أداة التواصل مع ذات الشعب الذي أبدعها ، في ذات البيئة التي نشأت في ربوعها ، تتفاعل معهما مرحلة حياة بعد مرحلة ، وألف عام بعد ألف إلى أن استوفت شروط نضجها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ، فحفظا لها أصولها من الضياع . وهكذا بقيت لنا هذه الأصول عالقة باللغة العربية ، لا بل بالحرف العربي بالذات حتى يومنا هذا .

ولكن ، لما كان الهبوط مما قبل التاريخ إلى الحروف العربية الراهنة يتطلب سرد المزيد من الأدلة

التاريخية والأثرية والنفسية والاجتماعية والمهنية والفنية وما إليها ، مما يبعدنا كثيراً عن موضوعنا اللغوي هذا ، فقد اخترت النهج الثاني .

فالصعود بالحروف العربية على مدارج من خصائصها الايمائية والتمثيلية والايحائية على واقع معانيها المعجمية إلى ما قبل التاريخ ، من شأنه أن يوصلنا إلى أصول نشأتها الأولى ، في المراجل الغابية والزراعية والرعوية .

وعلى الرغم من أن صحة نتائج الأدلة اللغوية تنسحب بالضرورة على كل ما عداها! من الأدلة ، إلا أنه من المفيد أن نسرد ما تحصل لنا من نتائج الأدلة الأخرى عند الاقتضاء ، كيما يكون القارىء أقدر على تمثل خصائص الحروف العربية واستيعاب معانيها .

فالرجوع إلى المرحلة التي أبدع فيها الانسان العربي كل حرف من حروفه ، من شأنه أن يساعدنا على استشفاف خصائصه البكر ، وبالتالي معناه الأصل الذي أبدع خصيصاً للتعبير عنه .

ولما كان معنى الكلمة العربية في ظل مقولة (فطرية اللغة العربية) هو بالضرورة محصلة معاني حروفها ، فإن العودة إلى أصول معاني الحروف العربية يمنحنا المزيد من المكاسب اللغوية والقومية والاجتماعية والانسانية ... منها :

1 – إلقاء أضواء جديدة على معاني الكلمة العربية ومشتقاتها ، فنميز بين معانيها الحقيقية والمجازية ، مما يساعدنا على سلامة استعمالها لمعان معاصرة لم ترد في تراثنا ، لا سيما العلمي منها .

2 – تحرير معاني الكلمة العربية من الشوائب المعجمية والتراثية التي قد تكون لحقت بها في الشروح والتفاسير .

3 – تصحيح حركة (عين) الفعل الثلاثي بما ينسجم مع معانيه كما أسلفنا في الحلقة السابقة .

4 – اكتشاف الأخطاء التي طرأت على بنية بعض الكلمات العربية بعد التدوين وقبل التنقيط بإسناد حرف معين لكلمة لا تتوافق خصائصه مع معانيها ، بدلا من الحرف الأصل الذي تتوافق خصائصه مع معانيها ، مما يشبهه قبل التنقيط . كما في حروف : (ج. ح. خ. د. ذ. ر. ز. س. ش ...).

5 – تحديد المخرج الصوتي لكل حرف عربي على المدرج الصوتي ، بأن يلفظ صوته بطريقة معينة من الشدة أو الرخاوة أو الفخامة أو الخنخنة وما إليها ، بما يكفل التوافق بين موحياته وبين معاني المصادر الذي يشارك في تراكيبها . وبذلك نستطيع اليوم أن نفصل في الخلاف بين العلماء حول مخارج العديد من أصوات الحروف كما في (ع. ج. ض. خ. ق. ك ...) فنلفظ أصوات حروفنا قريباً جداً مما كانت عليه في الجاهلية ، ونحفظ للسان العربي بذلك اصالة النطق به من الضياع في تيارات لاحصر لها من اللهجات الاقليمية والعامية جيلاً بعد جيل .

6 – تهديم جدران الرمزية والاصطلاحية الغربية التي حاصرت علوم اللغة العربية وكثيراً من دكاترتها .

7 – دعوة للألسنية الحديثة للافادة من هذه الظاهرة الأصيلة في اللغة العربية ، في انعطاف تصحيحي جديد لها .

وثمة مكاسب غيرها لا متسع لسردها ، كان من أهمها الكشف عن النزعة الفنية الأخلاقية في مقومات الشخصية العربية . نهج في دنيا الثقافة مستمد من نهجه في دنيا المجتمع .

ثانياً : حول مراحل إبداع الحروف العربية :

لقد تحدثنا في الحلقة السابقة عن إيمائية الحروف الغابية (الألف والواو والياء والهمزة المزمارية) ، وعن دلالاتها الحركية بما يكفل إقناع القارىء بصحة انتمائها إلى المرحلة الغابية . ولكن القارىء قد يتساءل : لماذا قسمنا الحروف الايمائية إلى غابية وزراعية ، فلا تكون غابية كلها أو زراعية كلها ، مادام الانسان العربي قد اعتمد طريقة التلفظ بأصواتها إيماء وتمثيلاً للتعبير بها عن حاجاته ؟. فأجيب :

إن الطابع الغالب على أصوات الحروف الغابية كما أسلفنا في الحلقة السابقة ، هو الهيجاني مصحوبة بحركات الرأس العفوية إلى (فوق – أمام – تحت) ، مما لا يتطلب اصدارها أي براعة أو ذكاء . أما أصول الحروف الزراعية فهي إيمائية تمثيلية إرادية يحتاج إصدارها إلى مزيد من البراعة والذكاء ، وذلك للتعبير بها عن حاجات حضارية منوعة تتجاوز متطلبات المرحلة الغابية المشردة والمستوى الفكري للانسان الغابي . فحرف (الفاء) مثلاً ، يحصل صوته بضرب الأسنان العليا على الشفة السفلى حبساً للنفس ، وبانفراجهما عن بعضهما عند خروجه . هذه الحركات تمثل إراديا حادثة الحفر بعظم أبيض على أرض طرية ، كما كانت المرأة العربية تفعل ذلك في بواكير المرحلة الزراعية .

وهكذا كانت البراعة والمستوى الفكري والحاجة هي الحدود الفاصلة بين الغابي والزراعي في الحروف العربية ، كما في أي ظاهرة حضارية أخرى . وقد يتساءل أيضاً :

بفرض أسبقية المرحلة الزراعية على المرحلة الرعوية ، خلافاً لما أجمع عليه معظم علماء التاريخ والآثار والاجتماع ، فكانت المرحلة الرعوية اللاحقة بذلك هي الأرقى حكماً .

لماذا لا نسند إبداع الحروف الزراعية أيضاً إلى المرحلة الرعوية المتطورة التي امتدت منذ الألف (9) ق .م حتى العصر الجاهلي ؟. فأجيب :

إن المرحلة الرعوية المشردة هي من نتاج المرحلة الزراعية المستقرة . فالمؤرخ الكبير (أرنولد توينبي) يؤكد في الجزء الأول من كتابه مختصر دراسة التاريخ مراراً : إن فن استئناس الحيوان هو أرقى من فن استئناس النبات ، وأنه من المحال على الانسان أن ينتقل مباشرة من المرحلة الغابية المشردة إلى المرحلة الرعوية المشردة ، قبل أن يمر بمرحلة زراعية مستقرة يستأنس فيها الحيوان والنبات .

ولقد مر الانسان العربي فعلاً بهذه المرحلة في الجزيرة العربية مع بوادر جفاف مابعد العصر الجليدي الأخير ، حوالي الألف (12) ق . م . فكان لزاماً على المرأة الأم زعيمة المرحلة الزراعية وربة الزراعة ، أن تضيف إلى الحروف الغابية حروفاً أخرى للتعبير بها إيماء وتمثيلاً عن حاجاتها ومعانيها الجديدة ، إرثاً في طريقة التواصل الايمائي عن المرحلة الغابية . وسنتحدث في الحلقة القادمة عن العلاقات الخفية بين المرأة العربية وهذه الحروف الايمائية التمثيلية .

ولكن عندما أخذت بوادر الجفاف تستحكم في ربوع الجزيرة العربية حوالي الألف (9) قبل الميلاد ، فقد اضطر الانسان العربي إلى ممارسة مهنة الرعي المشردة على يد الرجل القوي سعياً وراء الماء والكلأ . فكان من طبيعة الأمور أن يغتصب الرجل المحارب مالك القطيع من المرأة مختلف الزعامات الأسروية والاجتماعية والاقتصادية والدينية واللغوية فيلحقها وأولادها به ، على نقيض ما كانت حاله معها في المرحلة الزراعية .

وبتطور حياة الانسان العربي من الزراعي إلى الرعوي ، كان لابد أن تتطور معها أيضاً وسائل التواصل بينه وبين أبناء جنسه .

فالحركات الايمائية والتمثيلية الموروثة عن عهدي الغاب والزراعة لم تعد تجدي الرجل نفعاً في تواصله مع أبناء جنسه عبر المسافات البعيدة نهاراً ، ولاعبر الظلام في سهراته الليلية وهو يحرس القطيع من اللصوص والوحوش المتربصة . تقليد رعوي في السهر وحكاياته ورواياته ظل سائدا في المنطقة العربية حتى القرن العشرين ب . م . فكان ذلك عاملاً هاماً من عوامل ترسيخ القيم الجمالية والأخلاقية في التراث العربي .

وهكذا كان لابد للانسان العربي أن يهذب من الأصوات الموروثة ، وأن يبدع أصوات جديدة توحي بمعانيها في سمعه دونما حاجة إلى حركات جسمية مرئية ترافقها ، فتطورت عبر الزمن إلى أصوات حروف .

فكان لنا من المرحلة الرعوية طريقة راقية في التعبير عن معان مستجدة تعتمد صدى الأصوات في النفس ، تقتضي مزيداً من البراعة ورهافة الأحاسيس والمشاعر الانسانية . كما كان لنا منها أيضاً أصوات حروف تتجاوز وظائفها ومعانيها حاجات الانسان العربي ، ومستوياته الفكرية والنفسية والاجتماعية والمهنية مما كان عليه في المرحلتين الغابية والزراعية .

وهكذا بعد أن اهتدى الانسان العربي إلى هذه الطريقة الراقية في التعبير إيحاء بأصوات حروفه ، فلقد كان من المحال أن يعود القهقري ، فيلجأ إلى إبداع حروف تعتمد طريقة النطق بها إيماء وتمثيلا للتعبير عن معانيه .

وإذن باستحالة إبداع الحروف الايمائية التمثيلية في المرحلة الغابية لشدة تخلفها ، أو في المرحلة الرعوية لشدة تطورها ، فإن هذه الفئة من الحروف لابد أن تنتمي إلى مرحلة زراعية وسيط بين المرحلتين .

وهذا دليل لغوي قوي على توزع الحروف العربية إلى غابي وزراعي ورعوي يحتم مرور الانسان العربي بهذه المراحل الثلاث تباعاً .

الحروف الزراعية – خصائصها ودلالاتها – علاقة المرأة بها

الحلقة السابعة :

إن المرأة بحكم أمومتها الفطرية واضطلاعها بتربية الأطفال وتنشئتهم ، كانت على مر الزمن الأغزر عاطفة والأولع بفنون المداعبة والرقص والتمثيل .

كما أنها بحكم اضطلاعها بالشؤون المنزلية كانت الأبرع أيضاً في دنيا الصناعات اليدوية ومبتكراتها .

أمومة فطرية وتخصصات مهنية قد جعلا قسمات وجهها وأعضاءها الجسدية أكثر طواعية لارادتها .

وهكذا كانت المرأة الغابية في بواكير المرحلة الزراعية مؤهلة أكثر من الرجل الصياد لابداع الحركات الايمائية التمثيلية تعبيراً عن حاجاتها الحضارية المتسجدة ومعانيها المبتكرة . ولاشك في أن الكثير من تلك الحركات والأصوات المرافقة لها قد مات بفعل التطور فلم يبق منها إلا ما تحول إلى أصوات حروف . ولقد كان منها يقيناً أصول حروف (ف. ل. م. ث. ذ) واحتمالا حرفا (ش. خ) .

ولكننا حذر الاطالة سنقتصر هنا على ثلاثة منها : حرف (الفاء) للرابطة المهنية بينه وبين المرأة الزراعية ، وحرفا (الميم واللام) لكثرة دورانهما في حروف المعاني كما أسلفنا في الحلقة الثانية ، ولعلاقة معانيهما أيضاً بخصائص المرأة الفطرية ووظائفها المنزلية . فماذا عن هذه الحروف ؟ .

أولا : حرف الفاء :

1 – خصائصه ودلالاته:

بتأمل طريقة التلفظ بصوت هذا الحرف ، نجد أن الاسنان العليا هي التي تضرب على الشفة السفلى حبساً للنفس عند خروجه من جوف الصدر . ثم يبدأ صوته بشيء من – الخفيف عند احتكاك النفس بأطراف الاسنان العليا والشفة السفلى وبعثرته . وبانفراج الفكين عن بعضهما واسعاً ، يخرج صوته واضحاً مشبعاً .

وهكذا تتلخص الخصائص الايمائية التمثيلية لهذا الحرف ودلالاته في ثلاث :

أ – ضرب الاسنان العليا على الشفة السفلى ، يماثل ضربة عظم حيواني أبيض على أرض طرية مما يضاهي أحداث الحفر والقطع

والفصل في الطبيعة .

ب – بعثرة النفس مع بداية خروج صوته ، تضاهي أحداث البعثرة والتشتت في الطبيعة .

ج – انفراج الفكين عن بعضهما بعد خروج صوته يضاهي أحداث التوسع والانفراج والتباعد في الطبيعة .

2 – معانيه المعجمية :

بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرنا على (221) مصدراً جذراً تبدأ (بالفاء) كان منها (58) لمعاني الحفر والقطع والشق والفصل و (14) لمعاني البعثرة والتشتت والانتشار و (48) لمعاني التوسع والانفراج . وذلك بما يتوافق مع خصائصه الايمائية التمثيلية الثلاث عبر مراحل خروج صوته .

كما عثرنا على (21) مصدراً لمعاني الضعف والرقة والطراوة ، بما يتوافق مع صدى صوته الواهي في النفس لتتفوق بذلك خصائصه التمثيلية على الايحائية بستة أضعاف تقريباً ، مما يقطع بانتمائه إلى المرحلة الزراعية . تتمتع شخصيته بشيء من الشدة ، إذ بلغ تأثير خصائصه في معاني المصادر بنسبة (64،5) في المئة .

وما يثير الدهشة أننا لم نعثر على أي مصدر جذر يبدأ بالفاء مما يدل معناه على الالتصاق لتعارضه مع خصائصه الايمائية التمثيلية ودلالاتها في الشق والفصل والتوسع .

3 – علاقته بالمرأة :

لما كانت المرأة هي صانعة المرحلة الزراعية كما أسلفنا ، تحفر الأرض الطرية بعظم حيواني أبيض ، فمن البداهة أن تعبر هي ابتداء وليس الرجل عن هذا الحادث المهني ، بالحركات الايمائية التمثيلية أصول حرف (الفاء) ، على وجه ما بينا آنفا .

ولقد أفاد الانسان العربي من طريقة التلفظ بصوته ، فأبدع المزيد من المصادر الجذور التي تبدأ به تعبيراً عن المعاني التي تتعلق بالحياة الزراعية مثال : (فأس الخشبة (شقها) ، فأى . فتق . فجر . فجو . أفرخت البيضة (انفلقت عن الفرخ) . فرخ . فسق كل ذي قشر (خرج عن قشرة) فسل . فصم . فصل . فصى . نظم . فطر ، فقح فغا . فقس . فقش . فقص . فق فلج . فلح . فلق ...) وما إليها من الأحداث التي تتعلق بشؤون النبات في المرحلة الزراعية .

أما المصادر التي تتعلق معانيها بالحياة الرعوية المشردة ، فقد اقتصرت على ستة ، هي (الفحل – القدام) . الفرأ (حمار الوحش) . الغلاة . (الفهد . الفيف) .

وهذه الظاهرة من التخصص الزراعي نلحظها في حرف (اللام) أيضاً . فلم نعثر إلا على مصدر واحد يبدأ به مما يتعلق معناه بالحياة البدوية هو : (لاه السراب) اضطرب وبرق .

وذلك على العكس حرف (العين) الرعوي فلقد كثرت المصادر التي تبدأ به مما يتعلق معناه بالحياة الرعوية من أسماء الابل والأسد والأصوات وما يوجد في البوادي من وحوش وحشرات ونبات ، وما إلى ذلك من معاني الشدة والصلابة والفعالية والفخامة التي تتصف بها الحياة البدوية . ولم نعثر فيها على أي مصدر يتعلق معناه صراحة بالحياة الزراعية .

ثانيا : حرف الميم :

1 – خصائصه ودلالاته :

يبدأ صوته بانطباق الشفتين على بعضهما البعض في ضمة متأنية حبساً للنفس .

وبانفراجهما يخرج النفس ويستكمل الصوت شروطه من الوضوح والأشباع . وبذلك تتلخص خصائصه الايمائية التمثيلية ودلالاتها في ثلاث :

أ – انطباق الشفة على الشفة يضاهي الأحداث التي يتم فيها الضم والجمع والانفلاق .

ب – ضم الشفة على الشفة بشيء من الشدة والتأني ، قبيل خروج صوته يضاهي الأحداث التي يتم فيها المص والرضاع بالشفتين .

ج – انفراج الشفتين عن بعضهما أثناء خروج صوته (ما) يضاهي الأحداث التي يتم فيها التوسع والامتداد .

2 – معانيه المعجمية :

بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرنا على (253) مصدراً جذراً تبدأ به . كان منها (33) لمعاني المص والرضاع والحلب واستخراج ما في الأشياء المجوفة ، (22) لمعاني الجمع والضم والكسب والغضم والمضغ و (24) لمعاني التوسع والامتداد والانفتاح . وذلك بما يتوافق مع الخصائص التمثيلية الثلاث التي ترافق مراحل خروج صوته . كما كان منها (45) مصدراً لمعاني المرونة والرقة بما يتوافق مع موحيات صوته ، مما يؤكد صحة انتمائه إلى المرحلة الزراعية وحروفها الايمائية .

شخصيته متوسطة الشدة ، إذ بلغ تأثير خصائصه في معاني المصادر (50%) فقط .

ومما يثير الدهشة ، أننا لم نعثر على أي مصدر منها يدل معناه على السد والانغلاق بينما كان هناك (15) مصدراً تنتهي بالميم لهذه المعاني . وذلك يعود إلى أن الشفتين والفكين يستقران في انطباقهما على بعضهما عند التلفظ بصوته في نهاية المصادر ، فلا تنفرجان ، على العكس من حالهما في المصادر التي تبدأ به .

وذلك على مثال ما نلحظ وجود (17) مصدراً جذراً تبدأ بحرف (الثاء) لمعاني الشق والانفراج والسيلان ، ولا شيء منها للمصادر التي تنتهي به . نهج أصيل قد استقر عليه الانسان العربي في تعامله مع حروفه . ومعانيها .؛

3 – علاقته بالمرأة الأم :

إن خاصية المص هي أبرز الخصائص الايمائية التمثيلية لهذا الحرف ولما كانت المرأة الأم هي المعنية أصلاً بإرضاع الطفل فمما لاشك فيه أنها هي وليس الرجل التي أبدعت أصول هذا الحرف ، بشد الشفة على الشفة في صوت (ما) المشددة ، للتعبير عن واقعة مص الطفل ثدي أمه . ثم تطور معنى (ما) إلى معنى الأم ، أمرضعاً كانت أم غير مرضع وفي مرحلة أمانة الحروف الجوفية ، طور العربي لفظة (ما) إلى (ام) ، بإبدال الهمزة الصامتة في أولها بالألف اللينة الصائتة في آخرها . ولفظة (ماما) في لهجاتنا العامية ما هي إلا الارومة التاريخية لكلمة (أم) المعاصرة .

ويبدو لي أن الشعوب الغربية قد اقتبست هذه الكلمة عن اللغة العربية . فلفظة (ماما) موجودة أيضاً في معظم لهجاتها المحلية . كما أن الكلمة التي تدل على معنى (الأم) في معظم لغاتهم تبدأ بحرف (الميم) من الألفاظ الدالة على رضاع الطفل ثدي أمه .

((مرثه . مرزه . ملجه . ملق الصبي أمه (رضعها) ...)).

ومنها ما يدل على رضاع الفصيل من الابل ضرع أمه .

(معجه – مغده – مقعه – مقمقة – مقاه مقواً) .

ثالثا : حرف اللام :

1 – خصائصه ودلالاته :

يبدأ خروج صوته بانطباق طرف اللسان على سقف الحنك قريباً من اللثة العليا حبساً للنفس ، ويتم بانفصالهما عن بعضهما البعض . وبذلك تقتصر خصائصه التمثيلية على اثنتين فقط .

أ – التصاق طرف اللسان بسقف الحنك ، يضاهي الأحداث التي يتم فيها الالتصاق والتماسك .

ب – تلاعب طرف اللسان بصوت الحرف ، يضاهي تلاعبه باللقمة عند نصفها .

2 – معانيه المعجمية :

عثرنا في المعجم الوسيط على (212) مصدراً جذراً تبدأ بهذا الحرف . كان منها (82) لمعاني الالتصاق والتماسك ، و (53) لمعان تتعلق بعمليات التذوق والأكل واللحس والأطعمة ، وما إليها ، بما يتوافق مع خصائصه الايمائية التمثيلية عبر مرحلتي خروج صوته . وكان منها (5) مصادر فقط لمعاني المرونة والليونة والتماسك ، يتوافق مع إيحاءاته الصوتية مما يقطع بعراقته الايمائية .

تتمتع شخصيته بشيء من الفتوة ، إذ بلغت نسبة تأثير خصائصه في معاني المصادر التي تبدأ به (65%) .

وعلى الرغم من خاصية الالتصاق الرئيسية في حرف (اللام) فإن علماء اللغة العربية وفقهاءها قد حرموه منها ظلماً وتجنياً في حروف المعاني ، وأسندوها تحيزا ومحاباة إلى حرف (الباء) بلا سند فقهي مقبول . ولنا عودة إلى هذا الخطأ في الحديث عن معاني حروف المعاني .

ومما يثير الدهشة أيضاً ، أننا لم نعثر على أي مصدر يبدأ به تدل معانيه على الانفراج أو الشق أو التوسع ، وذلك لتعارض هذه الأحداث مع خصائصه الايمائية التمثيلية ودلالاتها في الالتصاق ، على العكس مما لحظناه في حرف (الفاء) .

3 – علاقته بالمرأة الطاهية :

لما كانت شؤون التغذية أكثر التصاقاً بفطرة المرأة ووظائفها المنزلية ، فلقد كانت هي المندبة أصلاً للتعبير عن معانيها بحركة لسانية تضاهي حوادث الأكل واللوك واللحس وما إليها .

ولقد أفاد العربي عبر تطوره الحضاري واللغوي من خاصية تلاعب اللسان بصوت (اللام) على مثال تلاعبه باللقمة فأبدع المزيد من المصادر الجذور التي تتعلق معانيها بمؤسسة التغذية . منها :

(لحس – لسّ – لسد العسل ولحسه – لطع – لعص – لصق – لقم – لمج – تلمظ – لاس – لاك – لاق الطعام – اللسان – اللعاب – اللغمط – اللبن – اللغفة – اللحاك – اللوقة ...الخ .) .

ولئن كانت المصادر التي تدل معانيها على الالتصاق أكثر من المصادر التي تتعلق معانيها بشؤون التغذية ، إلا أن هذه الأخيرة هي الأصل الفطري في معاني (اللام) . فمعاني الالتصاق الحضارية قد تكون مصادرها جميعاً من مبدعات الرجل في المرحلة الرعوية ، أما معاني الأكل ومتعلقاته ، فهي ألصق

بفطرة المرأة . والفطري هو بداهة أعرق في القدم من الحضاري . وهكذا كانت المرأة أولى بحرف (اللام) من الرجل .

رابعا : ولكن ماذا عن بقية الحروف الايمائية التمثيلية :

حذر الاطالة سأقتصره على الحديث في لمح عن علاقة المرأة العربية بهذه الحروف في المرحلة الزراعية .

1 – حرفا (الذال والثاء) :

إن المرأة بحكم أمومتها الفطرية كانت هي المندبة أصلاً للتعبير إيماء عن جنسي الذكورة والأنوثة ، فأبدعت أصول هذين الحرفين . ثم تهذب النطق بهما في مرحلة رعوية لاحقة فصارا إلى (الذال والثاء) المعاصرين بلثغة لسانية ملحوظة تتوافر في صوت كل منهما خصائص الجنس الذي يمثله .

2 – حرف (الشين) :

وبحكم اضطلاع المرأة بالأمور المنزلية ، كانت هي المندبة لابداع أصول هذا الحرف إيماء بكشرة واسعة عن الأسنان مع مط الشفتين إلى الامام أثناء تدافع النفس وبعثرته ، وذلك للتعبير عن معاني التفاهة والخلط والبعثرة والتشتت والجمع العشوائي والانتشار ، وما إليها من متعلقات الأمور المنزلية ، مما نلحظه في معانيه (56) مصدراً تبدأ به و (85) مصدراً تنتهي به .

3 – حرف (الخاء) :

ولما كانت المرأة في المرحلة الزراعية هي المعنية باستئناس الحيوان وتربيته فلقد كانت هي أيضاً المندبة للتعبير عن معاني القذارة التي تعترض حياتها اليومية . فأبدعت أصول هذا الحرف (ايماء) بكشرة موسعة و(إيحاء) بصوت ظاهر الخنخنة ، تعبيراً عفوياً عن الاشمئزاز والتقزز . ثم استثمر الانسان العربي هذه الخصائص في مراحل لغوية متطورة للتعبير عن معاني القذارة والفحش والأمراض والعيوب العقلية والنفسية والجسدية والاضطراب والتفاهة وما إليها في (146) مصدراً تبدأ به ، و (43) مصدراً تنتهي به و(28) مصدراً يتوسطها . فكان حرف (الخاء) بذلك حاوية القمامة في بنيان اللغة العربية الشاعري الأنيق . لا يغير من مهمته هذه إن سقطت سهواً في هذه الحاوية بعض اللآلىء والدرر (خير – خصب – خضرة – خليل – خفر .) .

خامسا : القيمة العلمية للحروف الايمائية التمثيلية :

لما كنا لانزال نحيا لغوياً في العصر الجاهلي ، فإن الكشف عن الخصائص الايحائية للحروف العربية كما نوهنا في الحلقات السابقة ، لا يضيف أي عمق حضاري آخر إلى تراثنا اللغوي .

ولما كان علماء اللغة العربية وفقهاؤها القائلون بفطرة اللغة العربية قد بهرتهم هذه الظاهرة الايحائية في أصوات الحروف العربية ، فقد توقفوا مدهوشين عندها ، ولم يبحث أحد منهم بجدية عن الخصائص الايمائية التمثيلية في الحروف العربية . وفاتهم بذلك أن ينقبوا عميقاً عند جذورها الغابية والزراعية .

وهكذا فالاهتداء إلى الخصائص الايمائية التمثيلية لهذه المستحاثات من الحروف العربية ، يكشف لنا عن مراحل تطور اللغة العربية ، بدءاً من الغابي فالزراعي فالرعوي حتى العصور الجاهلية .

وهذا الاكتشاف لايقل أهمية في دنيا اللغات عالمياً عن اكتشاف إنسان (أوستراليا) وغيره من المستحاثات البشرية بمعرض البحث عن تطور الانسان على وجهي الأرض والتاريخ منذ ملايين الأعوام .

فماذا عن المرحلة الرعوية وحروفها ؟...